

بقلم :

المهتدي بالله عبد القادر بن إسماعيل الإبراهيمي

تنقيح :

نخبة من طلبة العلم

مكتبة دار الحنفاء

الطبعة الأولى

١١ صفر ١٤٢٩ هـ

الموافق ١٨ شباط ٢٠٠٨ م

مكتبة دار الحنفاء

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

قال الله عز وجل في كتابه الكريم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (النساء)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾ (لقمان)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ (الأحزاب)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ (النساء)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الأنفال)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الحديد)

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (الأنعام)

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (يوسف)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده سبحانه إذ هدانا لدين الإسلام ، وأزاح عنا شبه الزيغ والضلال ، ونستعين به فإنه لا حول ولا قوة لنا إلا به ، فلا خاب من به استعان ، ونستغفره ، ونستهديه ، ونتوب إليه فإنه يفرح بتوبة عبده إذا رجع وأناب فترك المعاصي والآثام ، ونتوكل عليه ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ونشهد أن لا إله إلا الله ، المتصف بصفات الجلال والكمال لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وله الحكم وله الأمر ، وهو على كل شيء قدير ، خلق الخلق ونصب لهم في أنفسهم وفي الآفاق الآيات ، وفطرهم على معرفة رب الأرض والسماوات ، وأخذ عليهم الميثاق أنه ربهم بقوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾[1] فأجابوه ﴿ بَلَىٰ ﴾ فكانت إلى وحدانيته داعية ، وإلى ربوبيته هادية .

ونشهد أن محمداً عبد الله ورسوله ، وصفيه من خلقه وخليله ، ذكَّر الخلق بما أودعه الله في فطرهم ، ونبَّههم بضرورة العود إلى ربهم ، وحذَّرهم من نسبة الآفات والنقائص لله أو سلب الربوبية عن الله أو صرف الألوهية لغير الله ، فأدى الأمانة ونصح الأمة ، وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، اللهم صَلِّ عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً كما تحب وترضى ، أما بعد :

فلقد انتشر الجهل وساد ، وعم الشرك البلاد والعباد ، وظهر في البر والبحر الفساد ، وبَعُد أكثر الناس عن حقيقة التوحيد ، وتلبسوا بالشرك والتنديد ، وعاد الإسلام غريباً كما بدأ غريباً ، فكان لزاماً على الحنفاء أتباع الرسل والأنبياء ، أن يذودوا عن الدين ، ويأخذوا بأيدي الناس إلى حبل الله المتين ، مستعينين في ذلك بالوحيين ، مقتدين بصاحب الأسوة وإمام الحنفاء إبراهيم ، ومن معه من الأنبياء و المرسلين عليهم أزكى صلاة وأتم تسليم .

ومن سنن الله سبحانه وتعالى أن جعل لدعوة الرسل مناوئين لهم علوم وسموم يبثونها بين الناس لكي يصدوهم عن الصراط إما إلى تفريط وإما إلى إفراط ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (الكهف)

فشمر أئمة الضلال من أولياء الشياطين ، منذ القدم وعلى مر الزمن لتمييع حقائق الدين ، ولصد أتباعهم عن الإلتحاق بركب الموحدين ، فزينوا لهم ما هم عليه من شرك ، فاستحدثوا لهم فتنة أسموها العذر بالجهل في التوحيد ، فعذروا من عبد مع الله غيره جاهلاً وعدُّوه من المؤمنين الموحدين ومن أهل جنة النعيم ، فجمعوا بين الضدين وأقنعوا السذج من المقلدين ، وتمادى بهم الحال إلى التماس العذر للذين ينتقصون من ذات الله وصفاته جهلاً أو تأويلاً تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، فقالوا إن الشق الأول من التوحيد[2] يسع فيه الخطأ ويعذر فيه المخطئ فألحقوا به ما ألحقوه بشقه الثاني[3] ، وقالوا نحن في هذا بالسلف مقتدون ، فأضافوا إلى قبيح كفرهم وزندقتهم أن رموا أئمة المسلمين وسادتهم إلى الكفر حتى يحسنوا بدعتهم ، فميعوا الدين وجادلوا عن المشركين ، وألحقوا العذر بالتوحيدين ، ورمونا وكل من يتصدى لهم من

---

[1] قال الله عز وجل في كتابه الكريم : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ (الأعراف)

[2] ألا وهو التوحيد العلمي الاعتقادي أو ما يسمى بتوحيد الربوبية .

[3] التوحيد العملي القصدي الطلبي أو ما يسمى بتوحيد الألوهية .

المسلمين الحنفاء وينكر عليهم بالغلو والخارجية كذباً وزوراً ، مع أن المسلمين الحنفاء فيما يدعون إليه على علم وبصيرة ويقين ، وسائرين على خطى الأنبياء والمرسلين أجمعين ، صلوات ربي وسلامه عليهم ، فالله يحكم بيننا وبينهم يوم القيامة وهو خير الحاكمين.

فاعلم يا طالب الحق أن توحيد الله عز وجل ، هو أصل الدين وأساسه ، فبه افتتح الأنبياء والمرسلين دعوتهم لأقوامهم صلوات ربي وسلامه عليهم ، وبدونه لا يقبل الله من أحد عملاً ، فتوحيد الله عز وجل هو أول واجب على المكلف ، قال تعالى : ﴿ **فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ** ﴾ (محمد: ١٩) .

فالله سبحانه وتعالى لا يقبل من أحد عملاً بدون أن يكون توحيده صحيحاً . ولا يستطيع أحد أن يوحد الله بدون معرفته المعرفة التي تخرجه عن حد الجهل به سبحانه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه لما أرسله إلى الْيَمَنِ :

« **إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِّ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَّ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَّ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ ..** » [1] .

قال الإمام النووي في شرحه للحديث السابق : (قَالَ الْقَاضِي عِيَاض رَحِمَهُ اللهَّ : هَذَا يَدُلّ عَلَى أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِعَارِفِينَ اللهَّ تَعَالَى ، وَهُوَ مَذْهَب حُذَّاق الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْيَهُود وَالنَّصَارَى أَنَّهُمْ غَيْر عَارِفِينَ اللهَّ تَعَالَى ؛ وَإِنْ كَانُوا يَعْبُدُونَهُ ، وَيُظْهِرُونَ مَعْرِفَته لِدَلَالَةِ السَّمْع عِنْدهمْ عَلَى هَذَا ، وَإِنْ كَانَ الْعَقْل لَا يَمْنَع أَنْ يَعْرِف اللهَّ تَعَالَى مَنْ كَذَّبَ رَسُولاً . قَالَ الْقَاضِي عِيَاض رَحِمَهُ اللهَّ : **مَا عَرَفَ اللهَّ تَعَالَى مَنْ شَبَّهَهُ وَجَسَّمَهُ مِنْ الْيَهُود ، أَوْ أَجَازَ عَلَيْهِ الْبُدَاء ، أَوْ أَضَافَ إِلَيْهِ الْوَلَد مِنْهُمْ ، أَوْ أَضَافَ إِلَيْهِ الصَّاحِبَة وَالْوَلَد ، وَأَجَازَ الْحُلُول عَلَيْهِ ، وَالِانْتِقَال وَالِامْتِزَاج مِنْ النَّصَارَى ، أَوْ وَصَفَهُ بِمَا لَا يَلِيق بِهِ ، أَوْ أَضَافَ إِلَيْهِ الشَّرِيك وَالْمُعَانِد فِي خَلْقه مِنْ الْمَجُوس وَالثَّنَوِيَّة ، فَمَعْبُودهمْ الَّذِي عَبَدُوهُ لَيْسَ هُوَ اللهَّ وَإِنْ سَمَّوْهُ بِهِ إِذْ لَيْسَ مَوْصُوفًا بِصِفَاتِ الْإِلَه الْوَاجِبَة لَهُ** . فَإِذًا مَا عَرَفُوا اللهَّ سُبْحَانه . فَتَحَقَّقْ هَذِهِ النُّكْتَة وَاعْتَمِدْ عَلَيْهَا ، وَقَدْ رَأَيْت مَعْنَاهَا لِمُتَقَدِّمِي أَشْيَاخنَا وَبِهَا قَطَعَ الْكَلَام أَبُو عِمْرَان الْفَارِسِيّ بَيْن عَامَّة أَهْل الْقَيْرَوَان عِنْد تَنَازُعهمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَة . هَذَا آخِر كَلَام الْقَاضِي رَحِمَهُ اللهَّ تَعَالَى) [2] .

لذا على الإنسان معرفة ربه معرفة يخرج بها عن حد الجهل به سبحانه ، لأن من عمل عملاً يتقرب به إلى الله وهو غير عارف به ، فإنه في الحقيقة ما استقبل بعبادته رب العالمين ، لأنه يظن ظناً والظن لا يغني من الحق شيئاً ، فمن لم يتصف بالعلم اتصف بالجهل أو بضد من أضداد العلم رغم أنفه ، حتى قال أحد العلماء : من دعا الله سبحانه وهو غير عارف به فما دعاه قط؛ لأن الذي تخيل في وهمه وصوره بجهله ليس هو الرب تعالى .

فكما علمت أن التوحيد هو أساس الدين وأصله ، يجب عليك أن تعلم أن معرفة الله سبحانه وتعالى أساس التوحيد وأصله ، لأن العلم قبل العمل ، لذا فإن العلماء قد قسموا التوحيد إلى قسمين من حيث الجملة ، توحيد اعتقادي وهو معرفة الله عز وجل وهذا بمثابة الأساس لأن التوحيد العملي ينبني عليه ، وأما التوحيد العملي فهو عبادة الله وحده لا شريك له والتبرؤ من عبادة ما سواه .

قال الإمام الجليل شمس الدين ابن قيم الجوزية رحمه الله مبيناً نوعي التوحيد وأنهما متلازمين وأنه لا يتم أحدهما دون الآخر :

(وملاك السعادة والنجاة والفوز بتحقيق التوحيدين اللذين عليهما مدار كتاب الله تعالى وبتحقيقهما بعث الله سبحانه وتعالى رسوله وإليهما دعت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أولهم إلى آخرهم .

أحدهما : التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي المتضمن إثبات صفات الكمال لله تعالى وتنزيهه فيها عن التشبيه والتمثيل وتنزيهه عن صفات النقص .

---

[1] صحيح مسلم ، كتاب الإيمان / باب الدعاء إلى الشهادتين ، طبعة المكنز (ص٣٦، رقم:١٣٢) ، الطبعة السلطانية (١/ ٣٨) .

[2] صحيح مسلم بشرح النووي (١/ ١٩٩-٢٠٠) .

والتوحيد الثاني : عبادته وحده لا شريك له وتجريد محبته والإخلاص له وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه والرضى به رباً وإلهاً وولياً وأن لا يجعل له عدلاً في شيء من الأشياء .

وقد جمع سبحانه وتعالى هذين النوعين من التوحيد في سورتي الإخلاص وهما سورة قل يا أيها الكافرون المتضمن للتوحيد العملي الإرادي وسورة قل هو الله أحد المتضمنة للتوحيد العلمي الخبري فسورة قل هو الله أحد فيها بيان ما يجب لله تعالى من صفات الكمال وبيان ما يجب تنزيهه من النقائص والأمثال ، وسورة قل يا أيها الكافرون فيها إيجاب عبادته وحده لا شريك له والتبرؤ من عبادة كل ما سواه . **ولا يتم أحد التوحيدين إلا بالآخر** ، ولهذا كان النبي يقرأ بهاتين السورتين في سنة الفجر والمغرب والوتر اللتين هما فاتحة العمل وخاتمته ليكون مبدأ النهار توحيداً وخاتمته توحيداً .

فالتوحيد العلمي الخبري له ضدان : التعطيل ، والتشبيه ، والتمثيل . فمن نفى صفات الرب عز وجل وعطلها كذب تعطيله توحيده ، ومن شبهه بخلقه ومثله بهم كذب تشبيهه وتمثيله توحيده .

والتوحيد الإرادي العملي له ضدان : الإعراض عن محبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والإشراك به في ذلك ، واتخاذ أوليائه شفعاء من دونه .

وقد جمع سبحانه وتعالى بين التوحيدين في غير موضع من القرآن ، فمنها قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (البقرة) ومنها قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (غافر) ، ومنها قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ (السجدة))[1] .

وإننا سنتطرق في هذه الوريقات بحول الله تعالى لأول التوحيدين وأسبقهما وهو التوحيد العلمي الاعتقادي[2] وكذلك نبين أنه أساس للتوحيد العملي ومستلزم له ولا بد ، وأن العبد لا يكون موحداً إلا بتحقيق هذين التوحيدين .

---

[1] اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ، ص ٤٣-٤٤ .

[2] ولتعلم أن أصل هذه الرسالة هي المقدمة الثانية لرسالة » توفيق اللطيف المنان في بيان أن الشاك في الله ليس من أهل الإيمان وأن الموالي له في الحكم سيان « والتي تتناول الرد على شبهات تتعلق بالتوحيد العلمي الاعتقادي والتي طالما ظن أعداء التوحيد ممن يسمون بأصحاب العذر بالجهل في التوحيد أنها أدلة دامغة لهم ضد أهل التوحيد ، فاستعنت بالله عز وجل لكتابة رسالة مفصلة تدمغ باطلهم من أساسه بحول الله تعالى ، ومن أهم ما تتضمنه تلك الرسالة الرد التفصيلي على الفهم الفاسد لحديث الرجل الموحد الذي أمر أولاده بحرق جسده بعد الموت خشية من الله وخوفاً ، والفهم الفاسد لحديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والرد على شبهات أخرى في نفس الباب . وإنني لما عرضت المقدمة الثانية لهذه الرسالة على نخبة من طلبة العلم لإثرائها ، فإنهم ساهموا بتعليقات مفيدة ، ونكت بديعة ، وإضافات قيمة حتى قررنا إفراد تلك المقدمة برسالة مستقلة موسعة لخطر المسألة وعظم أهميتها حتى أصبحت بهذا الشكل ، فأسال الله عز وجل أن يجزيهم خير الجزاء لما قاموا به من نصرة التوحيد ، والحمد لله الذي استخدمنا نحن عبيده لإعلاء كلمة التوحيد وقمع فتنة الشبهات التي هي أضر فتنة في هذا الزمان ، نسأل الله عز وجل أن يعيذنا من شر ما ظهر منها وما بطن ، إنه لطيف لما يشاء ، هو حسبنا ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير .

ونود تذكير القارئ الكريم ، بأنه من المعلوم أن توحيد الربوبية – المستلزم ضرورةً لتوحيد العبادة – مستقر في فطر بني آدم مع دلالة الآيات الكونية عليه ، وأن الرسل عليهم السلام قد جاؤوا بالتذكير به وتقريره وتفصيله والإخبار بالمزيد عنه ودعوة الناس لإلزامه من عبودية ربهم الأحد الصمد الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلا .

فلذا كان الهدف من هذه الرسالة هو توضيح قاعدة أساسية في موضوع الصفات حتى يتمكن من الرجوع إليها كل من أشكل عليه التفريق يين نوعي الصفات ، أو أراد الرد على من تعلق ببعض الشبهات في الصفات لإعذار المشركين ، وأيضاً لتوضيح حكم من جهل أو أنكر أو تأول الصفات التي لا يكون ربٌّ للعالمين إلا بها ، كذلك لكيفية دعوة من اشتهر عنه أن له ناقضاً في توحيد الربوبية ، أو عدم الاعتراف بوجود الرب سبحانه وتعالى ، أو اعترف بالصانع سبحانه مع عدم تنزيهه عن النقائص مطلقاً في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله مما يتضمن تعطيل الصانع ، والله الموفق لما فيه الخير والصلاح والفلاح.

ولولا بروز وتعدي الفكر الرجس النجس من اتخاذ المبطلين المناوئين لعقيدة التوحيد من نقض أول التوحيدين بالجهل أو التأويل حجة أخرى لإعذار المشركين لصببنا جل اهتمامنا على توحيد الألوهية الذي كان ولا زال الصراع حوله بين الحزبين حزب الله وحزب الشيطان هو الخلاف الرئيس ، لكن لم يكتفي عبيد إبليس من إعذار من عبد مع الله غيره بحجة الجهل أو التأويل فتجرئوا على ذات الباري وكماله سبحانه وتعالى في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله وحالوا بين الناس وبين فطرهم السليمة فغيروها وشوهوها حتى يمرروا فيها هذا الإفك الإدِّ الذي تتقزز منه الأنفس المؤمنة البريئة ، وتكاد السماوات يتفطرن منه ، فنسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

ولقد أسمينا هذه الرسالة بعون الله تعالى (**مُنْجِدَةُ الْغَارِقِيْنَ وَمُذَكِّرَةُ الْـمُوَحِّدِيْنَ بِصِفَاتِ الـلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّتِي هِـيَ مِـنْ أَصْـلِ الـدِّيْنْ**) سائلين الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الرسالة منجدةً للغارقين في أوحال الشبهات ومذكرةً للمسلمين الحنفاء الغرباء الذين تمسكوا بالمحكم ولم يخرموا أصل الدين بالشبهات ، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يثبتنا وإياهم على الإسلام إلى الممات ، وأن يجمعنا وإياهم في مستقر رحمته حيث لا نخاف فرقة ولا نتوقع إزالة ، إنه على كل شيء قدير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

راجي رحمة الملك الحق ،

المهتدي بالله عبد القادر بن إسماعيل الإبراهيمي

alibraheemy@gmail.com

الباب الأول

صفات الله سبحانه وتعالى الواجبة على كل موحد وموحدة معرفتها وتوحيد الله تعالى بها والعمل بمقتضاها من عبادة الله وحده لا شريك له

اعلم وفَّقك الله لمرضاته ، وأرشدك لطاعته ، وهداك إلى صراطه المستقيم أن هذه المسألة من أهم المسائل ، وبه يظهر حقيقة التوحيد ، وبه يفرق بين الموحدين والمشركين .

اعلم أن الله سبحانه وتعالى لا يدرك كنهه أحد ، وإنما عرفناه بصفاته ، وصفاته عز وجل كثيرة . والناس متفاوتون في معرفة صفات الله عز وجل كما أشار إلى ذلك الإمام الذهبي حيث قال : (والنبيون عرفوا الله تعالى ، وبعضهم أكمل معرفة لله ، والأولياء فعرفوه معرفة جيدة ، ولكنها دون معرفة الأنبياء ، ثم المؤمنون العالمون بعدهم ، ثم الصالحون دونهم . فالناس في معرفة ربهم متفاوتون ، كما أن إيمانهم يزيد وينقص ، بل وكذلك الأمة في الإيمان بنبيهم والمعرفة له على مراتب ، فأرفعهم في ذلك أبو بكر الصديق مثلاً ، ثم عدد من السابقين، ثم سائر الصحابة ، ثم علماء التابعين ، إلى أن تنتهي المعرفة به والإيمان به إلى أعرابي جاهل وامرأة من نساء القرى ، ودون ذلك) [١].

لكن هناك حد أدنى في المعرفة يشترك فيه كل الموحدين ، ولا يكونون موحدين إلا بتلك المعرفة كما قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية رحمه الله : (انه لا يستقر للعبد قدم في المعرفة بل ولا في الإيمان حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله **ويعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه** فالإيمان بالصفات ومعرفتها هو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان) [٢] .

إذاً فما هي أقل حد من المعرفة التي يجب أن تتوفر عند الشخص لكي يكون عارفاً بالله المعرفة التي تخرجه عن حد الجهل بربه سبحانه ويعتبر أنه قد عرف الله عز وجل ؟

أو بمعنى آخر ما هو أقل حد يجب على المرء معرفته من صفات الله عز وجل لكي يكون موحداً ؟

أو بمعنى آخر ما هي الصفات التي هي من أصل دين الإسلام وأساسه ؟

أو بمعنى آخر ما الفرق بين صفات الله التي يعذر الإنسان فيها بالجهل أو التأويل وصفات الله التي لا يعذر الإنسان فيها بالجهل أو التأويل ؟

أو هل الجهل بالصفة جهل بالموصوف دائماً ؟ فكلها أسئلة تصب في مصب واحد .

فالجواب : أنه إذا كانت هذه الصفة مما لا يتصور الموصوف إلا بها كان جهل تلك الصفة جهلاً بالموصوف . فإن هناك صفات لله تعالى لا يسع المؤمن الموحد جهلها ، بل لا يكون مؤمناً موحداً ولا عارفاً بالله المعرفة التي تخرجه عن حد الجهل به سبحانه إلا بمعرفة هذه الصفات معرفة يقينية لا شك فيها بوجه من الوجوه ، **وهي الصفات التي لا يتم مفهوم الربوبية ولا**

---

[١] سير أعلام النبلاء للذهبي (١٧/ ٥٤٧-٥٤٨) .

[٢] مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٨٥).

يتصور إلا بها ، بمعنى آخر من عرف أن الله هو رب العالمين فإنه بذلك يكون قد عرف الله عز وجل المعرفة التي تخرجه عن حد الجهل به سبحانه .

والدليل على ذلك فاتحة دعوة الأنبياء ، فهم كانوا يدعون أقوامهم إلى عبادة الله بوصفه أنه رب العالمين قبل أن يبينوا تفاصيل صفاته وأسمائه الكثيرة ، ويبينون لهم أن الله سبحانه وتعالى اختارهم لكي يبلغوا للناس رسالة التوحيد والتي هي عبادة رب العالمين وحده لا شريك له ، قال الله عز وجل عن أول رسول له إلى البشرية وهو نوح عليه السلام : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (الأعراف)

وقال سبحانه عن هود عليه السلام : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (الأعراف)

وموسى عليه السلام لما كلمه الله تبارك وتعالى ، عرَّف الله نفسه أول ما عرَّف أنه ربُّ العالمين ، قال الله عز وجل في كتابه الكريم : ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (القصص)

وانظر ماذا أمر الله موسى وهارون عليهما السلام : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الشعراء)

وانظر إلى فاتحة دعوة موسى عليه السلام لفرعون كيف كانت : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ (الأعراف)

وانظر ما الذي أمر الله عيسى عليه السلام بتبليغه للناس ، يقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ (المائدة) .

فهذه نماذج لبداية دعوة بعض أنبياء الله تعالى عليهم السلام لأقوامهم ، كيف أنهم دعوا أقوامهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى بوصفه أنه رب العالمين قبل أن يبينوا تفاصيل صفاته وأسمائه الكثيرة ، مما يعني أننا إذا عرفنا أن الله هو رب العالمين فإننا بذلك نكون قد عرفنا الله عز وجل المعرفة التي تخرجنا من حد الجهل به سبحانه .

ومن الدليل على ذلك أيضاً قول الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (الأعراف) حيث اكتفى الله عز وجل بأخذ الحجة على الخلق أنه ربهم ، وجعلها سبحانه حجة في بطلان الشرك .

إذاً فما هي هذه الصفات التي لا تتحقق معرفة الله سبحانه و تعالى إلا بها ؟ وما معنى كلمة الرب التي أشهد الله سبحانه وتعالى خلقه عليها ، والتي تكررت كذلك في حوارات الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم ؟ وما هي الصفات التي يكون مفهوم ربوبية الله عز وجل قائماً عليها ولا يتحقق إلا بها ؟

فصل : معاني كلمة الرب في اللغة

اعلم بداية أنه لا يقال « الرب » مطلقاً أي بدون إضافة إلا لله عز وجل ، ولا يذكر هذا الاسم في حق المخلوق إلا بالإضافة ، فيقال مثلاً رب الأسرة ، ورب الإبل . وكلمة الرب في اللغة تصرف على ثلاث معاني رئيسية : أحدها : المالك ، والثاني : المصلح المربي ، والثالث : السيد المطاع .

وقد جمع الإمام الطبري بين هذه المعاني الثلاث فقال : (فربنا جل ثناؤه : **السيد** الذي لا شبه لـه ولا مثـل في مثـل سـؤدده ، **والمصلح** أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه ، **والمالك** الذي له الخلق والأمر) [1] .

وسنلقي الضوء على هذه المعاني الثلاث وما تتضمنه من صفات بحول الله تعالى .

[1] تفسير الطبري (١/ ١٤٢) .

المعنى الأول لكلمة الرب وهو المالك :

يقال رب الدابة ، ورب الدار بمعنى مالكه ، فكل من ملك شيئًا فهو رَبُّهُ ، فالرب المالك ، ويقال إِنه لَـمَرْبُوبٌ بَـيِّنُ الرُّبُوبَـةِ أَي لَـمَمْلُوكٌ ؛ والعِـبادُ مَرْبُوبونَ للهِ عزَّ وجلَّ أَي مَمْلُوكونَ .

ولما كان الله عز وجل رب كل شيء بمعنى أن كل شيء هو ملكه تضمن ذلك **صفة الخلق** [1] . وهو أن الله خـالق كـل شيء ، وأن كل شيء سوى الله مخلوق . قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ (الرعد) ، وقال تعـالى : ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الطور) .

ويلزم من صفة الخلق **صفتي العلم والقدرة** أي أن الله على كل شيء قدير وأنه بكل شيء عليم ، فـإن كـمال القـدرة والعلـم يرتبطان بصفة الخلق ارتباطاً وثيقاً . إذ لا يتصور ممن خلق كل شيء أن يجهل ما خلق ، ولا يتصور ممن خلق العالمين مـن العـدم إلى الوجود أن يعجزه شيء ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

كما أنه يتضمن **صفة الإرادة** ، كما أشار إليه ابن عاشور في تفسيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ ﴾ (الشورى) حيث قال : (ولَمَّا جمع بين وصفي العلم والقدرة تعين أن هنالك صفة مطوية وهي الإرادة لأنـه إنـما تتعلـق قدرتـه بعـد تعلـق إرادتـه بالكائن) [2] . أي أن ظهور القدرة تابع للإرادة ، وكذلك الخلق والإيجاد يتضمن صفة الإرادة أيضاً.

قال تعالى : ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (الملك)

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية : (﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ ﴾ ؟ أي: ألا يعلم الخالق ؟! وقيل: معنـاه **ألا يعلـم الله مخلوقـه ؟!** والأول أولى ، لقوله: ﴿ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾) [3] .

قال الإمام أبو عبد الله القرطبي : (ولا بد أن يكون الخالق علاَّماً بما خلقه وما يخلقه) [4] .

قال الشوكاني : (والاستفهام في قوله : ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ ﴾ للإنكار ، والمعنى : ألا يعلـم الـسرّ ، ومـضمرات القلـوب مـن خلق ذلك وأوجده ، فالموصول عبارة عن الخالق ، ويجوز أن يكون عبارة عن المخلوق ، وفي ﴿ يَعۡلَمُ ﴾ ضمير يعـود إلى الله ، أي : ألا يعلم الله المخلوق الذي هو من جملة خلقه ، فإن الإسرار والجهر ومضمرات القلوب من جملة خلقه) [5] .

---

[1] وكون الله عز وجل هو الخالق وما سواه مخلوق يلزم منه أنه سبحانه واجب الوجود لذاته ، أو واجب الوجود بنفسه ، ومعناه أنه لم يوجده أحـد وأنـه لا يقبل العدم ، وأما غيره فيسمى ممكن الوجود لاحتياجه إلى من يوجده ولقبوله العدم . لذا كان الله سبحانه وتعالى ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ ﴾ (الحديد:٣) فهو أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء .

[2] تفسير التحرير والتنوير (٢٥/ ١٣٩) .

[3] تفسير ابن كثير (١٤/ ٧٤-٧٥) .

[4] تفسير القرطبي (٢١/ ١٢٢) .

[5] تفسير الشوكاني (٥/ ٢٦٢) .

قال سيد قطب : (﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ **ألا يعلم وهو الذي خلق ؟** ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ الذي يصل علمه إلى الدقيق الصغير والخفي المستور) [١] .

قال السعدي : (هذا إخبار من الله بسعة علمه، وشمول لطفه فقال: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ﴾ أي: كلها سواء لديه، لا يخفى عليه منها خافية، فـ ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي: بما فيها من النيات، والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال، التي تسمع وترى؟! ثم قال مستدلا بدليل عقلي على علمه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ **فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟!**) [٢].

قال فخر الدين الرازي : (**ان معنى الآية أن من خلق شيئاً لا بد وأن يكون عالماً بمخلوقه** ، وهذه المقدمة كما أنها مقررة بهذا النص فهي أيضاً مقررة بالدلائل العقلية ، وذلك لأن الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين على سبيل القصد ، والقاصد إلى الشيء لا بد وأن يكون عالماً بحقيقة ذلك الشيء فإن الغافل عن الشيء يستحيل أن يكون قاصداً إليه) [٣] .

قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** (١٢) ﴾ (الطلاق)

قال فخر الدين الرازي : (أي لكي تعلموا إذا تفكرتم في خلق السموات والأرض ، وما جرى من التدبير فيها أن من بلغت قدرته هذا المبلغ الذي لا يمكن أن يكون لغيره ، كانت **قدرته ذاتية لا يعجزه شيء عما أراده**) [٤] .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** (١٦٤) ﴾ (البقرة)

قال الإمام أبو عبد الله القرطبي : (قوله تعالى : ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أي دلالات تدل على وحدانيته وقدرته) [٥] .

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي (ت. ٧٢٢هـ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) ﴾ (فاطر) : (فَنَبَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آخِرِ الآيَةِ عَلَى دَلِيلِ انْتِفَاءِ الْعَجْزِ ، وَهُوَ كَمَالُ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ ، فَإِنَّ الْعَجْزَ إِنَّمَا يَنْشَأُ إِمَّا مِنَ الضَّعْفِ عَنِ الْقِيَامِ بِمَا يُرِيدُهُ الْفَاعِلُ ، وَإِمَّا مِنْ عَدَمِ عِلْمِهِ بِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، **وَقَدْ عُلِمَ ببديهة الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ كَمَالُ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ** ، فَانْتَفَى الْعَجْزُ ، لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقُدْرَةِ مِنَ التَّضَادِّ ، **وَلأَنَّ**

---

[١] في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٣٦) .

[٢] تفسير السعدي (١/ ٨٧٦) .

[٣] تفسير الرازي (٣٠/ ٦٦) .

[٤] تفسير الرازي (٣٠/ ٤٠) .

[٥] تفسير القرطبي (٢/ ٥٠٤).

الْعَاجِزَ لاَ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا ، تَعَالَى اللَّـهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا) [١] . وقال في موضع آخر : (وَهَذَا الأَصْلُ هُوَ الإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ الْعَامَّةِ التَّامَّةِ ، **فَإِنَّهُ لاَ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مَنْ آمَنَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى تِلْكَ الأَشْيَاءِ ، وَلاَ يُؤْمِنُ بِتَمَامِ رُبُوبِيَّتِهِ وَكَمَالِهَا إِلاَّ مَنْ آمَنَ بِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) [٢] .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ (الزمر: ٦٧) :

(وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ هم الكفار الـذين لم يؤمنـوا بقـدرة الله تعالى عليهم، **فمن آمن أن الله على كل شي قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره**) [٣] .

ولما سئل أعرابي عن كيفية معرفته صانع العالم أجاب بقوله : (البعرة تدل على البعير . والروث على الحمير ، وآثار الأقـدام على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج . وبحار ذات أمواج ، أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير ؟!) [٤] .

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية : (فمعلوم أن الإنسان لا يكون عارفاً بالله المعرفة الواجبة في الشرع ولا المعرفة التي تُمَكِّنُ بني آدم ولا المعرفة التامة حتى يعلم أنه حي عليم قدير) [٥] .

وصفة الخلق تدل أيضاً على **صفة الحكمة** ، كـما قـال تعـالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران) فأخبر الله عز وجل عن نتيجة التفكر في خلق السماوات والأرض أنها مؤدية إلى الإقرار بحكمة الله عز وجل ، ولقد ذكر في آية أخرى أن من عدم الإيمان بحكمة الله عز وجل إنما هو من ظـن الـذين كفـروا ، فقال عز من قائل: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (ص)

المعنى الثاني لكلمة الرب ، وهو المصلح المربي :

يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه قد رَبَّهُ يَرُبُّهُ فهو رَبٌّ له ورَابٌّ ، ومنه سمي الرَّبَّانيُّون لقيامهم بالكتب [٦] ، ومنه تسمى المرأة ربة البيت لقيامها بالتربية وإصلاح البيت .

يتضمن هذا المعنى للربوبية صفة الرزق والإنعام أي تربية الله لخلقه بالنعم التي لا تحـصى ، وأن الله هـو الـذي رزق عبـاده بكل ما لديهم ، وجعل لهم كل ما يصلحهم وينفعهم ويحفظهم ويسهل معيشتهم على ظهر الأرض .

---

[١] شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٧٢) .
[٢] شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١١٧) .
[٣] تفسير ابن كثير (١٢/ ١٤٧) .
[٤] تفسير الرازي (٢/ ١٠٩) .
[٥] درء تعارض العقل والنقل (٣/ ٢٦) .
[٦] انظر تفسير القرطبي (١/ ٢١١) .

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (غافر)

ويتضمن هذا المعنى للربوبية كونه سبحانه وتعالى هو المتصرف في الكون ، الذي بيده تدبير كل شيء ، فكما أنه يصلح ويربي خلقه بالإنعام فهو أيضاً يتصرف فيهم كما شاء ، فلا يصير في ملك الله إلا ما أراد ، أي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

قال تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (يونس) ، وقال سبحانه : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأنبياء) ، وقال سبحانه : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ (آل عمران)

ولا يقوم بكل ما سبق إلا من كانت لديه القدرة التامة والعلم الشامل بالكليات والجزئيات ، ومن هو موصوف بالحكمة التامة وهو الله سبحانه وتعالى .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية : (الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه ودفع الشر عنهم وحفظهم مما يفسدهم هذا معنى ربوبيته لهم وذلك يتضمن قدرته التامة ورحمته الواسعة وإحسانه وعلمه بتفاصيل أحوالهم وإجابة دعواتهم وكشف كرباتهم)[1] .

وقد تأتي كثيراً نداءات المستغيثين والسائلين باسم الرب تعالى بهذا المعنى تحديداً ، كما أشار إليه الإمام الشاطبي رحمه الله بقوله : (ومنها كثرة مجيء النداء باسم الرب المقتضى للقيام بأمور العباد وإصلاحها فكأنَّ العبد متعلق بمن شأنه التربية والرفق والإحسان ، قائلاً **يا من هو المصلح لشئوننا على الإطلاق** أتم لنا ذلك بكذا ، وهو مقتضى ما يدعو به)[2] .

المعنى الثالث لكلمة الرب ، وهو السيد المطاع :

يقال رَبَبْتُ القومَ أي سُسْتُهم أَي كنتُ فَوْقَهم ، ومنه قول يوسف عليه السلام : ﴿ فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾ (يوسف: ٤١) أي سيده ، ومن ذلك قول لَبِيد بن ربيعة :

وأَهْلكْنَ يومًا ربَّ كِنْدَة وابنَه ... ورَبَّ مَعدٍّ ، بين خَبْتٍ وعَرْعَرِ

يعني بربِّ كندة: سيِّد كندة[3] .

---

[1] بدائع الفوائد (٢/ ٧٧٩) .

[2] الموافقات (٤/ ٢٠٣) .

[3] تفسير الطبري (١/ ١٤١) .

وبما أن الله سبحانه وتعالى رب كل شيء ، فيتضمن هذا المعنى للربوبية أن الله له الأمر والطاعة والسيادة المطلقة كما له الخلق وأنه هو الذي يضع لهم التشريعات ويحل عليهم الحلال ويحرم عليهم الحرام .

قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الأعراف) ، وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾ (الرعد: ٤١)

وها هو يوسف عليه السلام يعلِّم هذه الصفة لصاحبيه في السجن فيقول : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (يوسف)

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية : (أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كلَّه لله، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه، ثم قال: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ أي: هذا الذي أدعوكم إليه من تَوحيد الله، وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم، الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه ، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : **فلهذا كان أكثرهم مشركين** ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (يوسف)) [١] .

وما كان ادعاء فرعون الربوبية إلا من قبيل هذا المعنى ، قال تعالى : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ (النازعات) ، ففرعون لم يدعي أنه خلق قومه ، وأنه هو الذي ينزل الأمطار لهم ، لكن كان يدعي أنه هو صاحب الأمر والنهي المطلق فيهم ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (غافر)

قال فخر الدين الرازي : (وأما ادعاؤه الربوبية لنفسه فبمعنى أنه يجب عليهم طاعته والانقياد له وعدم الاشتغال بطاعة غيره) [٢] .

وما كان اتخاذ اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله إلا من قبيل هذا المعنى ، قال الله عز وجل عنهم :

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ٣١) فكانوا يطيعونهم في التحليل والتحريم بدل أن يتبعوا ما شرع الله سبحانه وتعالى لهم .

لذا كانت لا إله إلا الله كلمة تكرهها الملوك لأنها تجعلهم عبيداً أمام الملك الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ (المؤمنون) ، فكان أكثر ما يفسد الدين الملوك وأحبار السوء ورهبان الفساد ، وما أصدق ما قاله الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله :

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الـذُّلَّ إِدْمَانُهَا

---

[١] تفسير ابن كثير (٨/ ٤٣) .

[٢] تفسير الرازي (٢٢/ ٦٤) .

وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا
وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلاَّ الْمُلُوكَ وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

ولما كان هذا المعنى للربوبية مهماً جداً أفرده الله عز وجل في سورة الناس فقال سبحانه : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ ﴾ (الناس) ، ولما كان هناك من البشر من يجاوز حد العبودية بادعائه لنفسه هذا الحق فيصير بذلك الادعاء طاغوتاً وإلهاً باطلاً أشار الله سبحانه وتعالى أنه هو الملك يوم القيامة بحيث لا ينازعه أحد ذلك اليوم في هذا الحق ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ (الأنعام) ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الحج: ٥٥-٥٦) ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ (غافر) ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الفرقان) .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : (قوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ (الفاتحة) وفي القراءة الأخرى : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ فمعناه عند جميع المفسرين كلهم ما فسره الله به في قوله : ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ (الانفطار) فمن عرف تفسير هذه الآية ، وعرف تخصيص المُلْك بذلك اليوم ، مع أنه سبحانه مالك كل شيءٍ ذلك اليوم وغيره ، عرف أن التخصيص لهذه المسألة الكبيرة العظيمة التي بسبب معرفتها دخل الجنة من دخلها ، وبسبب الجهل بها دخل النار من دخلها ، فيا لها من مسألة لو رحل الرجل فيها أكثر من عشرين سنة لم يوفها حقها !)[1] .

وكيف ينازعه أحد سبحانه وتعالى في ذلك اليوم العظيم والكل خاشع للملك الحق ذاهل فزع من شدة الهول ، وَجِلٌ مشفق مما في الحساب ، قال الله عز وجل :

﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ ﴾ (طه)

---

[1] الدرر السنية (١٣/ ٦٧) .

فصل : رب العالمين له الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه

إن الله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق ومنزه عن النقائص مطلقاً في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، فمن لم يؤمن إيماناً جازماً لا شك فيه بأن الله له الكمال المطلق ومنزه عن جميع النقائص والمعائب والآفات ومشابهة خلقه مطلقاً في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله فهو في الحقيقة لم يعرف الخالق سبحانه ، ولم يفرق بين الرب والمربوب ، والخالق والمخلوق ، ومالك الكون والعبد المملوك .

فالله سبحانه وتعالى مباين لخلقه في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، والنقص والعجز والآفات والاحتياج للغير وأمثاله من صفات النقص إنما هي من صفات المخلوقين لا من صفات الخالق عز وجل ، فالله سبحانه وتعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ (الشورى: ١١) لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ (الإخلاص) .

قال الله عز وجل مبيناً أنه له الكمال المطلق : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ (النحل)

قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية السابقة : (﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أي: الكمال المطلق من كل وجه) [١] .

وقال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية : (وثبوت معنى الكمال قد دل عليه القرآن بعبارات متنوعة دالة على معان متضمنة لهذا المعنى فما في القرآن من إثبات الحمد لله وتفصيل محامده وأن له المثل الأعلى وإثبات معاني أسمائه ونحو ذلك كله دال على هذا المعنى . وقد ثبت لفظ الكامل فيما رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس في تفسير ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ ﴾ (الإخلاص) أن الصمد هو المستحق للكمال وهو السيد الذي كمل في سؤدده والشريف الذي قد كمل في شرفه والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحكم الذي قد كمل في حكمه والغني الذي قد كمل في غناه والجبار الذي قد كمل في جبروته والعالم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد كمل في حكمته وهو الشريف الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد وهو الله سبحانه وتعالى . وهذه صفة لا تنبغي إلا له ليس له كفؤ ولا كمثله شيء وهكذا سائر صفات الكمال ولم يعلم أحد من الأمة نازع في هذا المعنى ، بل هذا المعنى مستقر في فطر الناس بل هم مفطورون عليه ، **فإنهم كما أنهم مفطورون على الإقرار بالخالق فإنهم مفطورون على أنه أجل وأكبر وأعلى وأعلم وأعظم وأكمل من كل شيء**) [٢] .

وقال في موضع آخر : (والرب حي قيوم غني صمد واجب بنفسه مستحق لصفات الكمال بنفسه ممتنع اتصافه بنقائضها ، فإن كماله من لوازم ذاته الواجبة الوجود بنفسها التي يمتنع عدمها أو عدم شيء من لوازمها ، والمخلوق يجب أن يكون معدوماً محدثاً فقيراً ، فلو تماثلا للزم أن يكون كل منهما واجب الوجود واجب العدم قديماً محدثاً غنياً بنفسه فقيراً بنفسه وذلك جمع بين النقيضين) [٣] .

---

[١] تفسير ابن كثير (٨/ ٣٢٠) .

[٢] مجموع الفتاوى (٦/ ٧٢) .

[٣] الاستغاثة في الرد على البكري (١/ ١٩٥-١٩٦) .

وإن تنزيه الله سبحانه وتعالى عن جميع النقائص ، وتقديسه ، ووصفه بالكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله من أصول جميع الأنبياء والمرسلين ، ولقد أشار إلى هذا الإمام الكبير شمس الدين ابن قيم الجوزية في كلام رائع حيث قال :

(جميع النبوات من أولها إلى آخرها متفقة على أصول .

أحدها : أن الله سبحانه وتعالى قديم واحد لا شريك له في ملكه ولا ند ولا ضد ولا وزير ولا مشير ولا ظهير ، ولا شافع إلا من بعد إذنه .

الثاني : أنه لا والد له ولا ولد ، ولا كفؤ ولا نسيب بوجه من الوجوه ، ولا زوجة .

الثالث : أنه غني بذاته فلا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه خلقه بوجه من الوجوه .

الرابع : أنه لا يتغير ولا تعرض له الآفات من الهرم والمرض والسنة والنوم والنسيان والندم والخوف والهم والحزن ونحو ذلك .

الخامس : أنه لا يماثل شيئاً من مخلوقاته ، بل ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

السادس : أنه لا يحل في شيء من مخلوقاته ، ولا يحل في ذاته شيء منها ، بل هو بائن عن خلقه بذاته ، والخلق بائنون عنه .

السابع : أنه أعظم من كل شيء ، وأكبر من كل شيء ، وفوق كل شيء ، وعال على كل شيء ، وليس فوقه شيء البتة .

الثامن : أنه قادر على كل شيء ، فلا يعجزه شيء يريده ، بل هو الفعال لما يريد .

التاسع : أنه عالم بكل شيء ، يعلم السر وأخفى ، ويعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، وما تسقط من ورقة إلا بعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس ولا متحرك إلا وهو يعلمه على حقيقته .

العاشر : أنه سميع بصير ، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ، ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، فقد أحاط سمعه بجميع المسموعات ، وبصره بجميع المبصرات ، وعلمه بجميع المعلومات ، وقدرته بجميع المقدورات ، ونفذت مشيئته في جميع البريات ، وعمت رحمته جميع المخلوقات ، ووسع كرسيه الأرض والسموات .

الحادي عشر : أنه الشاهد الذي لا يغيب ، ولا يستخلف أحداً على تدبير ملكه ، ولا يحتاج إلى من يرفع إليه حوائج عباده أو يعاونه عليها أو يستعطفه عليهم ويسترحمه لهم .

الثاني عشر : أنه الأبدي الباقي الذي لا يضمحل ولا يتلاشى ولا يعدم ولا يموت .

الثالث عشر : أنه المتكلم الآمر الناهي ، قائل الحق ، وهادي السبيل ، ومرسل الرسل ، ومنزل الكتب ، والقائم على كل نفس بما كسبت من الخير والشر ، ومجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

الرابع عشر : أنه الصادق في وعده وخبره ، فلا أصدق منه قيلا ولا أصدق منه حديثاً ، وهو لا يخلف الميعاد .

الخامس عشر : أنه تعالى صمد بجميع الصمدية ، فيستحيل عليه ما يناقض صمديته .

السادس عشر : أنه قدوس سلام ، فهو المبرأ من كل عيب وآفة ونقص .

السابع عشر : أنه الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه .

الثامن عشر : أنه العدل الذي لا يجور ولا يظلم ولا يخاف عباده منه ظلماً .

فهذا مما اتفقت عليه جميع الكتب والرسل ، وهو من المحكم الذي لا يجوز أن تأتي شريعة بخلافه ، ولا يخبر نبي بخلافه أصلاً . فترك المثلثة عباد الصليب هذا كله وتمسكوا بالمتشابه من المعاني والمجمل من الألفاظ وأقوال من ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ، وأصول المثلثة ومقالتهم في رب العالمين تخالف هذا كله أشد المخالفة وتباينه أعظم المباينة) [1].

ولقد سلك المتسبون للإسلام زوراً وبهتاناً سنن النصارى حذو القذة بالقذة ، فقسم منهم نسب لله النقص جهرة كما هو الواقع في كثير من المجتمعات [2] ، وأما القسم الآخر فقد تمسكوا بالمتشابه من المعاني ، وأقوال الملبسين من أئمة السوء الدعاة على أبواب جهنم ، فعذروا القسم الأول بالجهل تارة وبسوء التربية تارة وبالتأويل تارة ، فاعتقدوا إيمان وإسلام من لم ينزه الله سبحانه وتعالى عن جميع النقصان ، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وأفعاله [3] ، وزادوا على قبيح اعتقادهم قبيحاً آخر بأن نسبوا هذا الاعتقاد إلى إمام الموحدين وخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم حتى يحسنوا شركهم وإفكهم ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام أن يقبل إسلام امرأ لم يؤمن بأن الله له الكمال المطلق الذي لا نقص فيه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

لذا وجب عليك يا طالب رضوان الله عز وجل أن تسير على طريقة الأنبياء والمرسلين وتسلك سبيلهم والصراط الذي رسموه لمن يريد الجنان ، فتوقن أنه لا تتم معرفة الله ولا تصح إلا بإثبات الكمال المطلق له في ذاته وفي صفاته وأفعاله ، وبتنزيهه عن جميع النقائص والآفات والمعائب ومشابهة المخلوقين .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية : (نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما ، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد وأنه إله أحد صمد لم يلد فيكون له فرع ، ولم يولد فيكون له أصل ، ولم يكن له كفواً أحد فيكون له نظير ، ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفات الكمال) [4] ، وقال في موضع آخر : (وأهل السنة يقولون إن تنزيهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته كما أن إثبات صفات الكمال والحمد واجب لذاته وهو أظهر في العقول والفطر وجميع الكتب الإلهية وأقوال الرسل من كل شيء) [5] .

---

[1] هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى ، ص ٢١٦-٢١٧ .

[2] كنسبة كثير منهم الجور لرب العزة سبحانه ، وكذلك كنفيهم الحكمة عن الله في أفعاله ، وغيره كثير مما يطول ذكره مما لا يخفى على أحد ، بل وصل بهم الحد إلى أن سبوا الله عز وجل جهرة ففاقوا بذلك كفر أبي جهل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ، فنسأل الله عز وجل العفو والعافية في الدنيا والآخرة .

[3] كقولهم إن من اعتقد أن الله له قدرة عظيمة ولكن جهل قدرته سبحانه على بعض الأمور هو مؤمن موحد ولا نكفره إلا بعد أن نقيم عليه الحجة ، وكقولهم إن من شك في حكمة الله عز وجل في بعض الأمور هو مؤمن موحد ولكن جاهل يعلم ، ولا يكفر إلا إذا أصر بعد التعليم ، فاعتقدوا بذلك إيمان الجاهلين برب العالمين ، وقولهم هذا هو ولاء للمشركين ولا يشك موحد في كفر هؤلاء أعاذنا الله منهم ومن أفهامهم الفاسدة التي أوصلتهم إلى مثل هذا الاعتقاد الكفري .

[4] بدائع الفوائد (١/ ٢٤٣-٢٤٤) .

[5] إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (٢/ ٢٢٣) .

وقال أبو المظفر الإسفراييني : (اعلموا أسعدكم الله إن الله تبارك وتعالى أمر عبده بمعرفته في ذاته وصفاته وعدله وحكمته وكماله في صفته ونفوذ مشيئته وكمال مملكته وعموم قدرته ، **ولا تتكامل المعرفة بذلك كله إلا بنفي النقائص عنه وبإثبات أوصاف الكمال له من غير أن يشوبه شيء من بدع المبتدعين وإلحاد الملحدين**)[١] .

والأدلة على أن من لم يؤمن بأن الله له الكمال المطلق ومنزه عن النقائص مطلقاً أنه لا يعد موحداً ولا مؤمناً بالله ولا عارفاً به سبحانه كثيرة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، بل لا تجد آية في القرآن إلا وتتضمن أحد أنواع التوحيد كما أشار لذلك الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية فقال :

(إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد ، شاهدة به ، داعية إليه ، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهو التوحيد العلمي الخبري ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي ، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في نهيه وأمره فهي حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من العذاب فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد . فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم)[٢] .

ولكن ما لا يدرك جميعه لا ينبغي ترك التنبيه على بعض ما يستدل به على ذلك ، فإليك بعض الأدلة الدالة على أن الإنسان لا يعد موحداً ولا مؤمناً بالله ولا عارفاً به سبحانه وتعالى إلا بالإيمان الجازم واليقيني أن الله عز وجل له الكمال المطلق ومنزه عن جميع النقائص في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله :

الدليل الأول :

إن وجود الخلق وعظمته ودقته وجماله الباهر يدل على أن له خالقاً منزهاً عن النقائص والمعائب والآفات ومشابهة المخلوقين ، ومتصفاً بالكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، لأن المتصف بالنقص ولو في جزئية يمتنع أن يكون خالقاً لكل شيء ، وهذا معلوم بالضرورة العقلية لكل من لم تشوه الشياطين فطرته وعقله .

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ (الطلاق)

قال الشوكاني : (واللام في ﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ متعلق بـ ﴿ خَلَقَ ﴾ أو بـ ﴿ يَتَنَزَّلُ ﴾ ، أو بمقدَّر ، أي : فعل ذلك ؛ لتعلموا كمال قدرته ، وإحاطته بالأشياء ، وهو معنى ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ فلا يخرج عن علمه شيء منها كائناً ما كان)[٣] .

---

[١] التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، ص ١٣ .

[٢] مدارج السالكين (٢/ ٥٦٣-٥٦٤) .

[٣] تفسير الشوكاني (٥/ ٢٤٨) .

قال الإمام ابن الجوزي : (قوله تعالى : ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ أعلمكم بهذا لتعلموا قدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء)[١] .

قال الألوسي : (﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ متعلق ب ﴿ خَلَقَ ﴾ ، أو بـ ﴿ يَتَنَزَّلُ ﴾ أو بمضمر يعمهما أي فعل ذلك لتعلموا أن من قدر على ما ذكر قادر على كل شيء ، وقيل : التقدير أخبرتكم أو أعلمتكم بذلك لتعلموا ، وقرأ ليعلموا بياء الغيبة . ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ **لاستحالة صدور هذه الأفاعيل ممن ليس كذلك**)[٢] .

قال برهان الدين البقاعي : (﴿ ٱللَّهُ ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال التي القدرة الشاملة إحداها ، ثم أخبر عنه بما يدل على ذلك لأن الصنعة تدل على الصانع وعلى ما له من الصفات فقال : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ أي أوجد وحده من العدم بقدرته على وفق ما دبر بعلمه على هذا المنوال البديع القريب ﴿ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ أي وإنهم يشاهدون عظمة ذلك ويشهدون أنه **لا يقدر عليه إلا تام العلم كامل القدرة**)[٣] .

قال فخر الدين الرازي : (قوله تعالى : ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قُرِء ﴿ لِيَعْلَمُواْ ﴾ بالياء والتاء أي لكي تعلموا إذا تفكرتم في خلق السموات والأرض ، وما جرى من التدبير فيها أن من بلغت قدرته هذا المبلغ الذي لا يمكن أن يكون لغيره كانت قدرته ذاتية لا يعجزه شيء عما أراده)[٤] .

وقال في موضع آخر : (واستحقاق العبادة ليس إلا لمن يكون مستبداً بالإيجاد والإبداع ، والاستبداد بالإيجاد لا يحصل إلا لمن كان موصوفاً بالقدرة التامة والإرادة النافذة والعلم المتعلق بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات)[٥] .

وقال في موضع آخر : (﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس: ٥٥) ولم يذكر الدليل على صحة هذه القضية ، لأنه تعالى قد استقصى في تقرير هذه الدلائل فيما سبق من هذه السورة ، وهو قوله : ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس: ٦) وقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾ (يونس: ٥) فلما تقدم ذكر هذه الدلائل القاهرة اكتفى بذكرها ، وذكر أن كل ما في العالم من نبات وحيوان وجسد وروح وظلمة ونور فهو ملكه ، ومتى كان الأمر كذلك ، كان قادراً على كل الممكنات ، عالماً بكل المعلومات غنياً عن جميع الحاجات ، منزهاً عن النقائص والآفات)[٦] .

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية : (وذاتاً لا تتصف بصفات الكمال ليست خالق المخلوقات)[٧] .

---

[١] تفسير ابن الجوزي (٨/ ٣٠١) .

[٢] تفسير الألوسي (٢٨/ ١٤٦) .

[٣] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٠/ ١٧١-١٧٢) .

[٤] تفسير الرازي (٣٠/ ٤٠) .

[٥] تفسير الرازي (٣٢/ ١٨٠) .

[٦] تفسير الرازي (١٧/ ١١٨) .

[٧] درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (١٠/ ١٥٦-١٥٧) .

قال الإمام ابن الجوزي : (إن الله سبحانه وتعالى قد بنى هذه الأجسام متقنة على قانون الحكمة ، فدل بذلك المصنوع على كمال قدرته ولطيف حكمته) [١] .

قال الإمام ابن القيم : (تأمل العبرة في موضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام وأَدَلِّهِ على كمال قدرة خالقه وكمال علمه وكمال حكمته وكمال لطفه) [٢].

قال الشوكاني في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس: ١٠١) :

(والمراد بالنظر : التفكر والاعتبار ، أي قل يا محمد للكفار : تفكروا واعتبروا بما في السموات والأرض من المصنوعات الدالة على الصانع ، ووحدته ، وكمال قدرته) [٣].

قال الإمام ابن القيم : (ولو أردنا نستوعب ما في آيات الله المشهورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأن الله الذي لا إله إلا هو الذي ليس كمثله شيء وإنه الذي لا أعظم منه ولا أكمل منه ولا أبر ولا ألطف لعجزنا نحن والأولون والآخرون عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك) [٤] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الأعراف)

وفي هذه الآية يبين الله تعالى صفات الربوبية لمن تأمل فيها ، فيذكر خلق السماوات والأرض ، ومن ثم يذكر تدبيره لهذا الكون وأن هذا التدبير هو بأمره سبحانه ، ومن ثم يذكر أن الخلق والأمر له وحده ، ويختم الآية بأن رب العالمين هو من له الكمال المطلق من جميع الوجوه ومنزه عن جميع النقائص .

فهي آية جامعة بحق لصفات الربوبية ، لأن إثبات صفة الخلق والأمر لله يجمع كل صفات الربوبية ، حيث أن خلق السموات والأرض يسلتزم أن يكون خالقها متصفاً بالقدرة التامة ، والعلم الشامل ، والحكمة البالغة ، والإرادة النافذة . كما أشار لذلك فخر الدين الرازي بقوله : (والاستبداد بالإيجاد لا يحصل إلا لمن كان موصوفاً بالقدرة التامة والإرادة النافذة والعلم المتعلق بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات) [٥] .

ومن ثم أتبع الله هذه الصفة أي صفة الخلق المقتضية لصفات الربوبية كلها صفة الأمر ، وهي من لوازم صفة الخلق ، فالله سبحانه وتعالى (له الخلق) أي هو الذي خلق وهو المالك لمن خلق سبحانه وهو الذي يربي ويصلح ويدبر جميع شؤون خلقه

---

[١] صيد الخاطر ، ص ٣٤ .

[٢] مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٢-٢١٣) .

[٣] تفسير الشوكاني (٢/ ٤٧٦) .

[٤] مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٢١٢) .

[٥] تفسير الرازي (٣٢/ ١٨٠) .

في جميع مراحل حياتهم ، والتفرد بالخلق والملكية والإصلاح والتدبير والتربية يلزم منه السيادة المطلقة وأحقية إصدار الأوامر والتشريعات والأقضية كيفما أراد وكما يشاء في خلقه ومملكته البديعة العظيمة [1].

وما على المخلوقين المربوبين المملوكين العبيد إلا السمع والطاعة لأوامر ربهم العظيم الذي خلقهم ، ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (يس) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (البقرة) ، ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ (البقرة) ورب العالمين الذي استسلم له إمام الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو رب العالمين الذي يحي ويميت ويأتي بالشمس من المشرق ويطعم ويسقى ويشفي ويهدي ويغفر ويرحم ويسمع ويبصر ويدفع الضر ويسبغ النعم سبحانه وتعالى ، قال الله عز وجل قاصاً عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ (الشعراء) .

ويجب أن تعلم أن الله سبحانه وتعالى له الأمر الكوني والشرعي .

أما الأمر الكوني ، فهو أن الله سبحانه وتعالى هو المتصرف في الكون ، وكل شيء تحت تصرفه وأمره ، فلا يكون إلا ما شاء .

وأما الأمر الشرعي ، فهو أن الله سبحانه وتعالى هو صاحب الحق في التشريع والتحليل والتحريم ، وأنه هو صاحب الحق في الطاعة المطلقة ، فكما أنه الآمر في الكون فهو الآمر للبشر .

لذا فإن المتأمل في هذه الآية وما تدل عليه يعرف أنها آية عظيمة بحق وأنها جامعة لصفات الربوبية .

قال فخر الدين الرازي : (الآية دلت على أنه لا خالق إلا الله لأنه قال : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ ﴾ وهذا يفيد الحصر بمعنى أنه لا خالق إلا الله ، وذلك يدل على أن كل أمر يصدر عن فلك أو ملك أو جني أو إنسي ، فخالق ذلك الأمر في الحقيقة هو الله سبحانه لا غير . وإذا ثبت هذا الأصل تفرعت عليه مسائل : إحداها : أنه لا إله إلا الله إذ لو حصل إلهان لكان الإله الثاني خالقاً ومدبراً ، وذلك يناقض مدلول هذه الآية في تخصص الخلق بهذا الواحد . وثانيها : أنه لا تأثير للكواكب في أحوال هذا

---

[1] ولذلك فإن طواغيت الحكم يستدلون على حقهم بالتشريع والتحليل والتحريم والطاعة المطلقة بملكهم وعطاياهم على شعوبهم ، ألم تر إلى فرعون كيف أنه لما ادعى الربوبية بقوله : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ (النازعات) وادعى الألوهية بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي ﴾ (القصص: ٣٨) ، وكان قصده من ادعاء الربوبية والألوهية أحقية الطاعة المطلقة وأحقية التشريع والتحليل والتحريم ، حيث أفصح عن ذلك بقوله : ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (غافر) ، فاستدل على حقه بذلك بأنه يهدي إلى سبيل الرشاد ، واستدل أيضاً بذلك بملكه لمصر: ﴿ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (الزخرف) ، فانظر بالله عليك كيف لبَّس على قومه وأن الأنهار تجري من تحته وكأنه هو الذي يجريها لكن الحال هو كما قال رب العزة تبارك وتعالى : ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الزخرف)، وكذب فرعون ورب العزة ، فإن ملك مصر وملك الكون كله لله عز وجل ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ (النور: ٦٤) ، وإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يهدي إلى سبيل الرشاد ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (يونس)

العالم ، وإلا لحصل خالق سوى الله ، وذلك ضد مدلول هذه الآية . وثالثها : أن القول بإثبات الطبائع ، وإثبات العقول والنفوس على ما يقوله الفلاسفة وأصحاب الطلسمات باطل ، وإلا لحصل خالق غير الله . ورابعها : خالق أعمال العباد هو الله ، وإلا لحصل خالق غير الله) [١] .

وقال في موضع آخر : (﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ وقد بينا أن خلق السموات والأرض يدل على وجود الصانع وقدرته وحكمته من وجوه كثيرة . وأما الذي ذكره بعد هذه الكلمة فأشياء : أولها : قوله : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ وذلك أحد الدلائل الدالة على وجود الله ، وعلى قدرته وحكمته . وثانيها : قوله : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ وهو أيضاً من الدلائل الدالة على الوجود والقدرة والعلم . وثالثها : قوله : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ وهو أيضاً إشارة إلى كمال قدرته وحكمته ، إذا ثبت هذا فنقول : أول الآية إشارة إلى ذكر ما يدل على الوجود والقدرة والعلم ، وآخرها يدل أيضاً على هذا المطلوب) [٢] .

قال الألوسي : (﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي تقدس وتنزه عن كل نقص ويدخل في ذلك تنزهه تعالى عن نقص في الخلق أو في الأمر دخولاً أولياً . ففي ذلك إشارة إلى أنهما طبق الحكمة وفي غاية الكمال ولا يقال ذلك في غيره تعالى) [٣] .

قال البيضاوي : (﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ تعالى بالوحدانية في الألوهية وتعظم بالتفرد في الربوبية) [٤] .

قال فخر الدين الرازي : (أما قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما بين كونه خالقاً للسموات ، والأرض ، والعرش ، والليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر ، والنجوم وبين كون الكل مسخراً في قدرته وقهره ومشيئته ، وبين أن له الحكم والأمر والنهي والتكليف ، بين أنه يستحق الثناء والتقديس والتنزيه ، فقال : ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾) [٥] .

ولقد رد الله عز وجل على من لم يؤمن بقدرته تعالى على جمع العظام المتفتتة وإحيائها من جديد بأنه شخص نسي خلقه، وأنه يكفيه مراحل تكوُّنه وخلقه من العدم كدليل على سعة قدرة الله تعالى وعظمته وأنه على كل شيء قدير .

قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (يس)

---

[١] تفسير الرازي (١٤/ ١٢٨) .

[٢] تفسير الرازي (١٤/ ١٢٠) .

[٣] تفسير الألوسي (٨/ ١٣٨) .

[٤] تفسير البيضاوي (٣/ ١٢) .

[٥] تفسير الرازي (١٤/ ١٣٣).

قال فخر الدين الرازي : (وفي هذه الآيات إلى آخر السورة غرائب وعجائب نذكرها بقدر الإمكان إن شاء الله تعالى ، فنقول المنكرون للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلاً ولا شبهة واكتفى بالاستبعاد وادعى الضرورة وهم الأكثرون ، ويدل عليه قوله تعالى حكاية عنهم في كثير من المواضع بلفظ الاستبعاد كما قال : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِى ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدٍۭ ﴾ (السجدة: ١٠) ، ﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (الصافات) ، ﴿ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الصافات) إلى غير ذلك فكذلك ههنا قال : ﴿ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ على طريق الاستبعاد فبدأ أولاً بإبطال استبعادهم بقوله : ﴿ وَنَسِىَ خَلۡقَهُۥ ﴾ أي نسي أنا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم جعلنا لهم من النواصي إلى الأقدام أعضاء مختلفة الصور والقوام وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ما ليس من قبيل هذه الأجرام وهو النطق والعقل الذي بهما استحقوا الإكرام فإن كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة قذرة لم تكن محل الحياة أصلاً ، ويستبعدون إعادة النطق والعقل إلى محل كانا فيه ، ثم إن استبعادهم كان من جهة ما في المُعَادِ من التفتت والتفرق حيث قالوا : ﴿ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ اختاروا العظم للذكر لأنه أبعد عن الحياة لعدم الإحساس فيه ووصفوه بما يقوي جانب الاستبعاد من البلى والتفتت والله تعالى دفع استبعادهم من جهة ما في المعيد من القدرة والعلم فقال: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾ **أي جعل قدرتنا كقدرتهم ونسي خلقه العجيب وبدأه الغريب**)[١].

قال الشوكاني : (﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارًا ﴾ هذا رجوع منه سبحانه إلى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم فنبه سبحانه على وحدانيته ودل على قدرته على إحياء الأموات بما يشاهدونه من إخراج النار المحرقة من العود الندي الرطب وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ والشجر المعروف بالعفار إذا قطع منهما عودان وضرب أحدهما على الآخر انقدحت منهما النار وهما أخضران)[٢] .

قال الإمام أبي عبد الله القرطبي : (إن الشجر الأخضر من الماء والماء بارد رطب ضد النار ، وهما لا يجتمعان ، فأخرج الله منه النار ، **فهو القادر على إخراج الضد من الضد ، وهو على كل شيء قدير** ، ويعني بالآية ما في المرخ والعفار وهي زنادة العرب ، ومنه قولهم : في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ، فالعفار الزند وهو الأعلى ، والمرخ الزندة وهي الأسفل ، يؤخذ منهما غصنان مثل المسواكين يقطران ماء فيحك بعضهما إلى بعض فتخرج منهما النار)[٣] .

فمن يشهد أن الله خالقه وفي نفس الوقت لا يشهد أن له الكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله فأمره عجيب ، قال تعالى : ﴿ ۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلۡقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِىٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (الرعد)

---

[١] تفسير الرازي (٢٦/ ١٠٨-١٠٩) .

[٢] تفسير الشوكاني (٤/ ٣٨٣) .

[٣] تفسير القرطبي (١٧/ ٤٩١) .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : (يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد **مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالاته في خلقه على أنه القادر على ما يشاء ، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء** ، فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالمين خلقاً جديداً ، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به ، فالعجب من قولهم : ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ، وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأحقاف) ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ ﴾)[1] .

فكل من لم يعتقد أن الله واحد في صفاته ، وصفاته كلها كمال لا نقص فيها ، وأن الله واحد في أفعاله وأفعاله كلها بحكمة لا عبث فيها فهو المشرك الكافر و لا كرامة .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ (الإسراء)

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية : (يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به، من البعث على العمي والبكم والصمم ، جزاؤهم الذي يستحقونه لأنهم كذبوا ﴿ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي بأدلتنا وحججنا ، واستبعدوا وقوع البعث ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا ﴾ بالية نخرة ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أي: بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية ؟ **فاحتج تعالى عليهم، ونبههم على قدرته على ذلك ، بأنه خلق السماوات والأرض** ، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك[2] كما قال : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ (غافر: ٥٧) ، وقال ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأحقاف) ، وقال : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (يس) . وقال هاهنا: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أي: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى، ويعيدهم كما بدأهم)[3] .

---

[1] تفسير ابن كثير (٨/ ١٠٧) .

[2] أي أن إعادة الإنسان من العظام المتفتتة أسهل من خلق السماوات والأرض من العدم ، ولكن الله عز وجل ليس شيء أسهل عليه من شيء ، بل الأشياء كلها بالنسبة إلى دخولها تحت قدرته كشيء واحد ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (يس)

[3] تفسير ابن كثير (٩/ ٨٥) .

فتأمل هداك الله مصير من لم يؤمنوا بأن الله على كل شيء قدير ، وتأمل هداك الله في عقاب الله لهم ، قال الله عز وجل : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (النساء) فما بعد بيان الله بيان ! ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ (فصلت) ، وبالله التوفيق .

الدليل الثاني :

إن الرب المستحق للعبادة إنما هو من تنزه عن النقائص مطلقاً ، فمن كان متصفاً بالنقص لا يصلح أن يكون إلهاً ، والدليل على هذا هو أن الله سبحانه وتعالى أظهر بطلان ألوهية الأصنام باتصافها بالنقص والعجز ، فقال عز من قائل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الحج)

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية : (فتأمل هذا المثل الذي أمر الناس كلهم باستماعه فمن لم يستمعه فقد عصى أمره كيف تضمن إبطال الشرك وأسبابه بأصح برهان في أوجز عبارة وأحسنها وأحلاها ، وأسجل على جميع آلهة المشركين أنهم لو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد وساعد بعضهم بعضاً ، وعاونه بأبلغ المعاونة لعجزوا عن خلق ذباب واحد ، ثم بين ضعفهم وعجزهم عن استنقاذ ما يسلبهم الذباب إياه حين يسقط عليهم ، فأي إله أضعف من هذا الإله المطلوب ومن عابده الطالب نفعه وخيره ، فهل قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه آلهة هذا شأنها ؟!!

فأقام سبحانه حجة التوحيد وبين إفك أهل الشرك والإلحاد بأعذب ألفاظ وأحسنها لم يستكرهها غموض ولم يشنها تطويل ولم يعبها تقصير ولم تزر بها زيادة ولا نقص بل بلغت في الحسن والفصاحة والبيان والإيجاز مالا يتوهم متوهم ولا يظن ظانٌّ أن يكون أبلغ في معناها منها وتحتها من المعنى الجليل القدر العظيم الشرف البالغ في النفع ما هو أجل من الألفاظ)[1] .

قال سيد قطب رحمه الله : (إنه النداء العام ، والنفير البعيد الصدى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ . . فإذا تجمع الناس على النداء أعلنوا أنهم أمام مثل عام يضرب ، لا حالة ولا مناسبة حاضرة : ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ . . هذا المثل يضع قاعدة ، ويقرر حقيقة . ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾ . . كل من تدعون من دون الله من آلهة مدعاة . من أصنام وأوثان ، ومن أشخاص وقيم وأوضاع ، تستنصرون بها من دون الله ، وتستعينون بقوتها وتطلبون منها النصر والجاه . . كلهم ﴿ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾ . . والذباب صغير حقير؛ ولكن هؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرون ولو اجتمعوا وتساندوا على خلق هذا الذباب الصغير الحقير!

وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل . لأن الذباب يحتوي على ذلك السر المعجز سر الحياة . فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل . . ولكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس

---

[1] الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٢/ ٤٦٦-٤٦٧) .

ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل! دون أن يخل هذا بالحقيقة في التعبير . وهذا من بدائع الأسلوب القرآني العجيب!

ثم يخطو خطوة أوسع في إبراز الضعف المزري : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ . . والآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها إياه ، سواء كانت أصناماً أو أوثاناً أو أشخاصاً! وكم من عزيز يسلبه الذباب من الناس فلا يملكون رده . وقد اختير الذباب بالذات وهو ضعيف حقير . وهو في الوقت ذاته يحمل أخطر الأمراض ويسلب أغلى النفائس : يسلب العيون والجوارح ، وقد يسلب الحياة والأرواح . . إنه يحمل ميكروب السل والتيفود والدوسنتاريا والرمد . . ويسلب ما لا سبيل إلى استنقاذه وهو الضعيف الحقير! .

وهذه حقيقة أخرى كذلك يستخدمها الأسلوب القرآني المعجز . . ولو قال : وإن تسلبهم السباع شيئاً لا يستنقذوه منها . . لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعف . والسباع لا تسلب شيئاً أعظم مما يسلبه الذباب! ولكنه الأسلوب القرآني العجيب!

ويختم ذلك المثل المصور الموحي بهذا التعقيب : ﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ . ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال ، وما أوحى به إلى المشاعر والقلوب!

وفي أنسب الظروف . . والمشاعر تفيض بالزراية والاحتقار لضعف الآلهة المدعاة يندد بسوء تقديرهم لله ، ويعرض قوة الله الحق الحقيق بأنه إله :

﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ . .

ما قدروا الله حق قدره ، وهم يشركون به تلك الآلهة الكليلة العاجزة التي لا تخلق ذباباً ولو تجمعت له . بل لا تستنقذ ما يسلبها الذباب إياه!

ما قدروا الله حق قدره ، وهم يرون آثار قدرته ، وبدائع مخلوقاته ، ثم يشركون به من لا يستطيعون خلق الذباب الحقير!

ما قدروا الله حق قدره ، وهم يستعينون بتلك الآلهة العاجزة الكليلة عن استنقاذ ما يسلبها إياه الذباب ، ويدعون الله القوي العزيز ، إنه تقرير وتقريع في أشد المواقف مناسبة للخشوع والخضوع!)[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (الأحقاف) ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (النحل) ، وقال عن إبراهيم عليه السلام وهو يحتج على أبيه : ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ ﴾ (مريم) وعلى قومه: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (الأنبياء) .

---

[1] في ظلال القرآن (٤/ ٢٤٤٣-٢٤٤٤) .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية : (وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهاً ولا مدبراً ولا رباً بل هو مذموم معيب ناقص ليس له الحمد لا في الأولى ولا في الآخرة ، وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال ونعوت الجلال التي لأجلها استحق الحمد) [١] .

قال محمد بن محمد ابن مصطفى الخادمي الحنفي: " (**مُنَزَّهٌ**) مُبْعَدٌ وَمُبَرَّأٌ ، (**عَنْ صِفَاتِ النُّقْصَانِ**) الَّتِي تُوجِبُ انْحِطَاطًا فِي مَرَاتِبِ الْأُلُوهِيَّةِ كَالْجَهْلِ وَالْعَجْزِ وَالِافْتِقَارِ وَنَحْوِهَا ، نَقَلَ الدَّوَانِيُّ عَنْ ابْنِ تَيْمِيَّةَ كَوْنَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةِ مُجْمَعًا عَلَيْهَا ، (**كُلِّهَا**) لِأَنَّ لَهُ الْكَمَالَ الْمُطْلَقَ ، وَمُسْتَغْنٍ عَنْ غَيْرِهِ مَعَ افْتِقَارِ الْكُلِّ إلَيْهِ ، (**مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ**) فَكُلُّ مَا اتَّصَفَ بِهِ فَكَمَالٌ بَلْ كُلُّ كَمَالٍ صِفَةٌ لَهُ ، (**كُلِّهَا وَلَيْسَ لَهُ كَمَالٌ مُتَوَقَّعٌ**) أَيْ مُنْتَظَرٌ لِلُزُومِ النَّقْصِ فِي الْأَزَلِ وَلِلُزُومِ كَوْنِهِ مَحَلَّ الْحَوَادِثِ فِيمَا لَا يَزَالُ ، (**قَدِيمٌ**) أَيْ لَا ابْتِدَاءَ لِوُجُودِهِ " [٢] .

ومن صفات النقص التي نفاها الله تعالى عن نفسه : الموت ، والجهل ، والنسيان ، والعجز ، والسنة ، والنوم ، واللغوب ، والإعياء ، والظلم.

قال الله تعالى : ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ** ﴾ (الفرقان: ٥٨) ، وقال عن موسى عليه السلام : ﴿ **قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾** ﴾ (طه) ، وقال سبحانه : ﴿ **وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾ (فاطر: ٤٤) ، وقال: ﴿ **لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ** ﴾ (البقرة: ٢٥٥) ، وقال: ﴿ **وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾** ﴾ (ق) ، وقال: ﴿ **وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ** ﴾ (الأحقاف: ٣٣) ، وقال: ﴿ **وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾** ﴾ (الكهف) . [٣]

---

[١] مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٧) .

[٢] بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية (١/ ٢٠٨) .

[٣] **(فائدة)** : اعلم أن كل صفة نفاها الله تعالى عن نفسه فإنها متضمنة لشيئين :

أحدهما : انتفاء تلك الصفة ، والثاني: ثبوت كمال ضدها .

ألا ترى إلى قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (فاطر) ، فإن الله تعالى لما نفى عن نفسه العجز بين أن ذلك لكمال علمه وقدرته .

وعلى هذا فنفي الظلم عن نفسه متضمن لكمال عدله ، ونفي اللغوب والعي متضمن لكمال قوته ، ونفي السنة والنوم متضمن لكمال حياته وقيوميته ، ونفي الموت متضمن لكمال حياته ، وعلى هذا تجري سائر الصفات المنفية . ولا يمكن أن يكون النفي في صفات الله عز وجل نفياً محضاً (أي نفياً دون فائدة) ، بل لابد أن يكون لإثبات كمال وذلك للوجوه التالية:

الأول: أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (النحل: ٦٠) أي الوصف الأكمل وهذا معدوم في النفي المحض .

الثاني: أن الله سبحانه وتعالى يمدح نفسه بهذا النفي ، فلو كان هذا النفي نفياً محضاً مجرداً لا لشيء ولا لفائدة لكان عدماً محضاً ، والعدم المحض ليس بشيء ، وما ليس بشيء فكيف يكون مدحاً وكمالاً .

مثال على ذلك هو أن الله سبحانه وتعالى مدح نفسه بأنه لا تأخذه سنة ولا نوم ، فلو كان هذا النفي نفياً محضاً لا يتضمن إثبات كمال لكان مثل العدم أي اللاشيء ، لأن العدم المحض واللاشيء هو الموصوف بنفي محض ، والله جل جلاله ليس عدماً سبحانه فكان كل صفة نفاها عن نفسه إنما هو لإثبات كمال ضد هذه الصفة .

وقد جعل الله عز وجل نفي صفة الكلام موجباً لبطلان الإلهية كما أشار إلى ذلك الإمام ابن القيم رحمه الله بقوله : (فإن قيل فالله تعالى لا يكلم عباده قيل بلى قد كلمهم فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب منه إليه بلا واسطة كموسى ومنهم من كلمه الله على لسان رسوله الملكي وهم الأنبياء وكلم الله سائر الناس على ألسنة رسله فأنزل عليهم كلامه الذي بلغته رسله عنه وقالوا لهم هذا كلام الله الذي تكلم به وأمرنا بتبليغه إليكم ومن ههنا قال السلف من أنكر كون الله متكلماً فقد أنكر رسالة الرسل كلهم لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذي تكلم به إلى عباده ، فإذا انتفى كلامه انتفت الرسالة ، وقال تعالى في سورة طه عن السامري : ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ (طه) ، ورجع القول هو التكلم والتكليم ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ (النحل) **فجعل نفي صفة الكلام موجباً لبطلان الإلهية** ، **وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهاً ولا مدبراً ولا رباً** بل هو مذموم معيب ناقص ليس له الحمد لا في الأولى ولا في الآخرة ، **وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال ونعوت الجلال التي لأجلها استحق الحمد** ، ولهذا سمى السلف كتبهم التي صنفوها في السنة وإثبات صفات الرب وعلوه على خلقه وكلامه وتكليمه توحيداً ، لأن نفي ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع وجحد له ، **وإنما توحيده إثبات صفات كماله وتنزيهه عن التشبيه والنقائص** ، فجعل المعطلة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها توحيداً ، وجعلوا إثباتها لله تشبيهاً وتجسيماً وتركيباً ، فسموا الباطل باسم الحق ترغيباً فيه وزخرفاً ينفقونه به ، وسموا الحق باسم الباطل تنفيراً عنه ، والناس أكثرهم مع ظاهر السكة ليس لهم نقد النقاد ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ ﴾ (الكهف) ، والمحمود لا يحمد على العدم والسكوت البتة إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية ، وإلا فالسلب المحض لا حمد فيه ولا مدح ولا كمال .

الثالث: أن النفي إن لم يتضمن كمالاً فقد يكون لعدم قابلية الموصوف لذلك المنفي أو ضده ، لا لكمال الموصوف كما إذا قيل: " الجدار لا يظلم " فنفي الظلم عن الجدار ليس لكمال الجدار ، ولكن لعدم قابلية اتصافه بالظلم أو العدل ، وحينئذ لا يكون نفي الظلم عنه مدحاً له ولا كمالاً فيه .

الرابع: أن النفي إن لم يتضمن كمالاً فقد يكون لنقص الموصوف أو لعجزه عنه كما لو قيل عن شخص عاجز عن الانتصار لنفسه ممن ظلمه: " إنه لا يجزي السيئة بالسيئة " فإن نفي مجازاته السيئة بمثلها ليس لكمال عفوه ولكن لعجزه عن الانتصار لنفسه وحينئذ يكون نفي ذلك عنه نقصاً وذماً لا كمالاً ومدحاً .

ألم تر إلى قول الحماسي يهجو قومه :

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِـلِي ... بَنُو اللَّقِيطَةِ مِـنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَا

إلى أن قال:

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَـدَدٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْـلِ السُّوءِ إِحْسَانَا

يريد بذلك ذمهم ووصفهم بالعجز لا مدحهم بكمال العفو بدليل قوله بعد:

فَلَيْتَ لِي بِهِمُو قَوْمـــاً إِذَا رَكِبُـوا ... شَنُّـوا الإِغَارَةَ رُكْبَاناً وَفُـرْسَانَا

وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه وتعبيد كل شيء له ، فاتخاذ الولد ينافي ذلك كما قال تعالى : ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ (يونس: ٦٨) ، وحمد نفسه على عدم الشريك المتضمن تفرده بالربوبية والإلهية **وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره** فيكون شريكاً له ، فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه ، لأن الموجود أكمل من المعدوم ، ولهذا لا يحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمنا لثبوت كمال كما حمد نفسه بكونه لا يموت لتضمنه كمال حياته ، وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سنة ولا نوم لتضمن ذلك كمال قيوميته ، وحمد نفسه بأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر لكمال علمه وإحاطته ، وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحدا لكمال عدله وإحسانه ، وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار لكمال عظمته يرى ولا يدرك كما أنه يعلم ولا يحاط به علماً ، فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال لأن العدم لا يرى فليس في كون الشيء لا يرى كمال البتة ، وإنما الكمال في كونه لا يحاط به رؤيةً ولا إدراكاً لعظمته في نفسه وتعاليه عن إدراك المخلوق له ، وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان لكمال علمه ، فكل سلب في القرآن حمد الله به نفسه فلمضادته لثبوت ضده ولتضمنه كمال ثبوت ضده) [١] .

نستنتج مما سبق أن الإله الحق ، والرب المستحق للعبادة إنما هو من كان له الكمال المطلق ومن كان منزها عن النقائص كلها في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، فانظر إلى الهدهد وتعجب منه كيف ذم قوم سبأ لسجودهم للشمس التي ليس لها الكمال لا في ذاتها ولا في صفتها ، ومن ثم قرر كمال قدرة الله وكمال علمه بألطف عبارة ، واستدل أن الإله الحق الذي يستحق العبادة هو من كان متصفاً بكمال القدرة والعلم لا غيره ، قال الله سبحانه وتعالى مخبراً عن الهدهد : ﴿ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾ [٢] (النمل).

قال فخر الدين الرازي : (الآية دلت على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم ، أما القدرة فقوله : ﴿ يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ وسمي المخبوء بالمصدر ، وهو يتناول جميع أنواع الأرزاق والأموال وإخراجه من السماء بالغيث ، ومن الأرض بالنبات . وأما العلم فقوله : ﴿ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴾ . واعلم أن المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وتحرير الدلالة هكذا : **الإله يجب أن يكون قادراً على إخراج الخبء وعالماً بالخفيات ، والشمس ليست كذلك فهي لا تكون إلهاً وإذا لم تكن إلهاً لم يجز السجود لها** ، أما أنه سبحانه وتعالى يجب أن يكون قادراً عالماً على الوجه المذكور ، فلما أنه واجب لذاته فلا

---

[١] مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٧-٣٨) .

[٢] فانظر بالله عليك إلى هذا الجندي من جنود التوحيد ، كيف أنه لما وجد قوماً يعبدون الشمس من دون الله حكم عليهم بعدم الهداية وأن سبب ضلالهم هو تزيين الشيطان لعملهم ، فلم يعذرهم بهذا التلبيس ، كما يعذر بعض المنافحين عن إيمان الجاهلين برب العالمين ، والمدافعين عن توحيد من يعبدون غير الله معتذرين لهم أنهم ملبس عليهم من قبل علمائهم ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾ (المدثر) .

تختص قادريته وعالميته ببعض المقدورات والمعلومات دون البعض ، وأما أن الشمس ليست كذلك فلأنها جسم متناه ، وكل ما كان متناهياً في الذات كان متناهياً في الصفات ، وإذا كان كذلك فحينئذ لا يعلم كونها قادرة على إخراج الخبء عالمة بالخفيات ، فإذا لم يعلم من حالها ذلك لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار ، فرجع حاصل الدلالة إلى ما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ ﴾ (مريم))[1] . اهـ

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الحج) :

(وهذا المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان الشرك وتجهيل أهله وتقبيح عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد تلاعب بهم أعظم من تلاعب الصبيان بالكرة حيث أعطوا **الإلهية التي من بعض لوازمها القدرة على جميع المقدورات والإحاطة بجميع المعلومات والغنى عن جميع المخلوقات وأن يصمد إلى الرب في جميع الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإجابة الدعوات** فأعطوها صورا وتماثيل يمتنع عليها القدرة على أقل مخلوقات الآلهة الحق وأذلها وأصغرها وأحقرها ولو اجتمعوا لذلك وتعاونوا عليه)[2] .

ولقد اصطفى الله سبحانه وتعالى لملائكته وعباده كلاما هو من أفضل الكلام وهي كلمة (**سُبْحَانَ اللَّـهِ وَبِحَمْدِهِ**) والتي تتضمن نفي النقائص عن الله مطلقاً ، وإثبات الكمال المطلق له سبحانه .

فَعَنْ أَبِى ذَرٍّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهَّ صلى الله عليه وآله وسلم سُئِلَ أَىُّ الْكَلاَمِ أَفْضَلُ قَالَ : « **مَا اصْطَفَى اللَّـهُ لِمَلاَئِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ سُبْحَانَ اللَّـهِ وَبِحَمْدِهِ** »[3] .

وَعَنْ أَبِى ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهَّ صلى الله عليه وآله وسلم : « **أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَحَبِّ الْكَلاَمِ إِلَى اللهَّ** » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهَّ أَخْبِرْنِى بِأَحَبِّ الْكَلاَمِ إِلَى اللهَّ ، فَقَالَ « **إِنَّ أَحَبَّ الْكَلاَمِ إِلَى اللهَّ سُبْحَانَ اللَّـهِ وَبِحَمْدِهِ** »[4] .

واعلم أن (**سُبْحَانَ اللَّـهِ وَبِحَمْدِهِ**) تعبير جامع لصفات الربوبية ، فإن سبحان الله تعنى تنزيه الله عن جميع النقائص والمعائب والآفات وسمات الحدث ومشابهة المخلوقين وكل ما لا يليق به سبحانه ، ويستلزم ذلك إثبات الكمال المطلق لله في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، وحمد الله عز وجل يعني إثبات الكمال المطلق لله عز وجل ، وذلك يتضمن نفي النقائص عنه جملة وتفصيلاً.

---

[1] تفسير الرازي (٢٤/ ١٩٢) .

[2] إعلام الموقعين (٢/ ٣١٢-٣١٣) .

[3] صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة / باب فضل سبحان الله وبحمده ، طبعة المكنز (ص١٤٠٢ ، حديث رقم:٧١٠١) ، الطبعة السلطانية (٨/ ٨٦) .

[4] صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة / باب فضل سبحان الله وبحمده ، طبعة المكنز (ص١٤٠٢ ، حديث رقم:٧١٠٢) ، الطبعة السلطانية (٨/ ٨٦) .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية : (فإن التسبيح تنزيه الله سبحانه عن كل سوء ، قال ميمون بن مهران : سبحان الله كلمة يعظم بها الرب ويحاشى بها من السوء ، وقال ابن عباس : هي تنزيه لله من كل سوء ، وأصل اللفظة من المباعدة من قولهم سبحت في الأرض إذا تباعدت فيها ومنه ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأنبياء) فمن أثنى على الله ونزهه عن السوء فقد سبَّحَهُ)[١] . وقال في موضع آخر : (فسبحان الله رب العالمين تنزيها لربوبيته وإلهيته وعظمته وجلاله عما لا يليق به من كل ما نسبه إليه الجاهلون الظالمون ، فسبحان الله كلمة يحاشى الله بها عن كل ما يخالف كماله من سوء ونقص وعيب فهو المنزه التنزيه التام من كل وجه وبكل اعتبار عن كل نقص متوهم وإثبات عموم حمده وكماله وتمامه ينفي ذلك واتصافه بصفات الإلهية التي لا تكون لغيره وكونه أكبر من كل شيء في ذاته وأوصافه وأفعاله ينفي ذلك لمن رسخت معرفته في معنى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)[٢] .

قال علاء الدين الكاساني الحنفي : (مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ تَعَالَى فَقَدْ عَظَّمَهُ وَنَزَّهَهُ عَمَّا لاَ يَلِيقُ بِهِ مِنْ صِفَاتِ النَّقْصِ وَسِمَاتِ الْحَدَثِ ، فَصَارَ وَاصِفًا لَهُ بِالْعَظَمَةِ وَالْقِدَمِ ، وَكَذَا إذَا هَلَّلَ[٣] ؛ لأَنَّهُ إذَا وَصَفَهُ بِالتَّفَرُّدِ وَالأُلُوهِيَّةِ فَقَدْ وَصَفَهُ بِالْعَظَمَةِ وَالْقِدَمِ **لِاسْتِحَالَةِ ثُبُوتِ الإِلَهِيَّةِ دُونَهُمَا**)[٤] .

فهي عبارة عظيمة بحق ، وقد ورد في فضلها أحاديث عدة ، منها قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « **مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلاَّ أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ** »[٥] .

و رحم الله الإمام ابن القيم حين قال :

وَمَا بَلَغَ الْمُهْدُونَ نَحْوَكَ مِدْحَةً ... وَإِنْ أَطْنَبُوا ، إِنَّ الَّذِي فِيكَ أَعْظَمُ

لَكَ الْحَمْدُ كُلُّ الْحَمْدِ ، لاَ مَبْدَا لَهُ ... وَلاَ مُنْتَهَى ، وَاللَّهُ بِالْحَمْدِ أَعْلَمُ[٦]

الدليل الثالث :

إن الله سبحانه وتعالى عد من نقصه في قدرته ممن لم يقدره حق قدره ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (الزمر)

---

[١] شفاء العليل ، ص ٣٠٢ .

[٢] شفاء العليل ، ص ٣١٤ .

[٣] إذا هلل أي إذا قال لا إله إلا الله .

[٤] بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (١/ ٥٩٤) .

[٥] صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة / باب فضل التهليل والتسبيح ، طبعة المكنز (ص١٣٧٧ -١٣٧٨ ، رقم:٧٠١٨) ، الطبعة السلطانية (٨/ ٦٩) .

[٦] مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤١٥) .

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية : (وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته. قال مجاهد: نزلت في قريش . وقال السدي : ما عظموه حق عظمته . وقال محمد بن كعب : لو قدروه حق قدره ما كذبوه . وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله تعالى عليهم، **فمن آمن أن الله على كل شي قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره**)[١] .

قال الحافظ ابن تيمية : (فمن نقصه في قدرته وخلقه ومشيئته فلم يقدره قدره ، ومن نقصه من حكمته ورحمته فلم يقدره حق قدره)[٢] .

قال البيضاوي : (﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ ما قدروا عظمته في أنفسهم حق تعظيمه حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لا يليق به)[٣] .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ (الحج)

قال أبو السعود : (﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ أي ما عرفُوه حقَّ معرفتِه حيث أشركُوا به وسمَّوا باسمه ما هو أبعدُ الأشياءِ عنه مناسبةً ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ ﴾ على خلق الممكناتِ بأسرها وإفناءِ الموجوداتِ عن آخرها ﴿ عَزِيزٌ ﴾ غالبٌ على جميع الأشياءِ وقد عرفتَ حالَ آلهتِهم المقهورةِ لأذلها العجزة عن أقلها ، **والجملةُ تعليلٌ لما قبلها من نفيِ معرفتهم له تعالى**)[٤] .

الدليل الرابع :

إن الله سبحانه وتعالى عد عدم الإيمان بكمال علم الله عز وجل من سوء الظن به ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (فصلت)

قال الإمام الجليل شمس الدين ابن قيم الجوزية : (وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيء الظن به وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر ، فقال تعالى : ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (فصلت) فأخبر سبحانه

---

[١] تفسير ابن كثير (١٢/ ١٤٧) .

[٢] مجموع الفتاوى (٦/ ١٣٠) .

[٣] تفسير البيضاوي (٥/ ٢٢) .

[٤] تفسير أبي السعود (٤/ ٤٥) .

أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته من سوء ظنهم به وأنه هو الذي أهلكهم ، وقد قال في الظانين بـه ظـن الـسوء ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ (الفتح) ولم يجيء مثل هذا الوعيد في غـير مـن ظـن الـسوء بـه سبحانه وجحد صفاته)[1] .

قـال الإمام ابـن الـجوزي : (قـال ابن عباس : كان الكفار يقولون : إن الله لا يَعلم ما في أنفُسنا ، ولكنه يعلم مــا يَظهـر ، ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ﴾ أي : أن الله لا يَعلم ما تعملون ، ﴿ أَرْدَىٰكُمْ ﴾ أهلككم)[2] .

قال فخر الدين الرازي : (قال تعالى : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ وهذا نص صريح في أن من ظن بالله تعالى أنه يخرج شيء من المعلومات عن علمه فإنه يكون من الهالكين الخاسرين)[3] .

روى مسلم في صحيحه عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : (اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُـرَشِيٌّ ، قَلِيلٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ كَثِيرٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ أَتُرَوْنَ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ ؟ وَقَالَ الآخَـرُ يَـسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَـا وَلاَ يَـسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا ، وَقَالَ الآخَرُ إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَهُـوَ يَـسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَـا ، فَـأَنْزَلَ اللَّــهُ عَـزَّ وَجَـلَّ : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ الآيَة)[4] .

أقول بحول الله تعالى : انظر هداك الله كيف سوَّى الصحابي الجليل عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه بيـنهم في قلـة الفقـه ، فالأول سأل عن علم الله جاهلاً ، والثاني شبه الله بالمخلوقين الذين يـسمعون الجهـر ولا يـسمعون الـسر ، أمـا الثالـث فكـان أعقلهم ولكن لما كان شاكاً فيما يقوله سوى ابن مسعود رضي الله عنه – وهو من فقهاء الصحابة – بينهم في قلة الفقـه ، فكلهـم سواسية في الحكم أنهم ليسوا من أهل الإيمان ، **فلا فرق في الحكم بالكفر بين من سأل عن كمال علـم الله جـاهلاً بـه ، وبـين مـن شبه علم الله بعلم المخلوقين ، وبين من شك في كمال علم الله تعالى** . والإيمان المطلوب هو الاعتقـاد الجـازم بـأن الله سـبحانه و تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وأنه سبحانه يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

الدليل الخامس :

إن عدم الإيمان بكمال صفات الله وعلوها وتمامها يقتضي تشبيه الله سبحانه وتعالى بالمخلوقين ، والشاهد على ذلك هو قول الله عز وجل عن الرجل الذي قال ﴿ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ (يس) فلقد وصفه الله سبحانه في أول الآية أنه شبه الله بخلقه حيث قال الله عز وجل عنه : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾ (يس: ٧٨) ، مع أن الرجل لم يسلب عن الله القدرة جملة وتفصيلاً بل كان يؤمن بأن الله خلقه ، ولكن لما لم يؤمن بكمال تلك الصفة أصبح وكأنه شبه رب العزة بخلقه ، لأن الخلق لهم قدرة والله

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٨٥-٤٨٦) .

[2] تفسير ابن الجوزي (٧/ ٢٥١) .

[3] تفسير الرازي (٢٧/ ١١٨) .

[4] صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، الطبعة السلطانية (٨/ ١٢١) ، طبعة المكنز (ص١٤٣٦ ، رقم:٧٢٠٥) .

تبارك وتعالى له قدرة أيضاً ، لكن قدرة الخلق ناقصة وقدرة الله كاملة تامة ، لذا فمن لم يؤمن بأن قدرة الله تامة كاملة فإنه إذاً يؤمن بأن قدرة الله تعالى ناقصة ومحدودة وبذلك يكون قد شبه الله بخلقه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وهكذا الأمر في جميع صفات الله عز وجل فإن الله له الكمال في جميع صفاته ومنزه عن صفات النقص ، ومنزه أن تكون صفاته ناقصة ، ومنزه أن تشبه صفاته صفات المخلوقين ، فسبحان الملك الحق ! ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى: ١١) لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ (الإخلاص) .

الدليل السادس :

إن الله سبحانه وتعالى عد نسبة نقصٍ مثل الولد إليه شتماً له ، فكل من نسب لله صفة لا تليق به سبحانه يعتبر أنه شاتم لله عز وجل . عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ : « **قَالَ اللَّـهُ : (كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّاىَ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِى كَمَا بَدَأَنِى ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَىَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّاىَ فَقَوْلُهُ اتَّخَذَ اللَّـهُ وَلَدًا ، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِى كُفْأً أَحَدٌ) »** [1] .

المقصود بالحديث ليس كل بني آدم بل من أنكر منهم البعث [2] ، وسبب التكذيب بالبعث قد يكون عناداً وقد يكون لإنكار القدرة عليه وهو الغالب على من يكذب بالبعث ، كما قال أحدهم : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ (يس) فلقد وصفه الله سبحانه وتعالى في أول الآية أنه إنما ضرب هذا المثل لله ونسي خلقه فردَّ الله سبحانه وتعالى عليه بقوله ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ (يس) ، وهنا في هذا الحديث يرد الله عز وجل عليهم بأن بتذكيرهم بقدرته بالخلق الأول ، وأن من قدر على الخلق الأول الذي هو من العدم قدر على الخلق الثاني ، فإعادة الخلق ليس أشق ولا أصعب على الله تعالى من الخلق الأول ، بل الكل سواء يوجد بكلمة (كُنْ) .

ومن ثم يرد الله عز وجل على صنف آخر من الناس ممن وصفوه بالنقص ، وهم الذين نسبوا له الولد ، فلقد وصف الله عز وجل هذا الوصف الشنيع بأنه شتم له .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني : (إنما سماه شتماً لما فيه من التنقيص ، لأن الولد إنما يكون عن والدة تحمله ثم تضعه ويستلزم ذلك سبق النكاح والناكح يستدعى باعثا له على ذلك والله سبحانه منزه عن جميع ذلك) [3] .

قال الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية : (فمن نسب الولد لله فما عرف الرب تعالى ولا آمن به ولا عبده) .... إلى أن قال: (فكمال قدرته وكمال غناه وكمال ربوبيته يجعل نسبة الولد إليه ونسبته إليه تقدح في كمال ربوبيته وكمال غناه وكمال قدرته ، ولذلك كانت نسبة الولد إليه مسبة له تبارك وتعالى) [4] .

---

[1] صحيح البخاري ، كتاب التفسير / باب سورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ ، الطبعة السلطانية (٦/ ١٨٠) ، طبعة المكنز (ص١٣٨٨ ، حديث رقم ٤٩٧٤).

[2] انظر إرشاد الساري للقسطلاني (٧/ ٤٣٩) ، فتح الباري لابن حجر العسقلاني (٨/ ٦٢٥) .

[3] فتح الباري لابن حجر (٨/ ١٨) .

[4] بدائع الفوائد (٤/ ١٥٧٥) .

قال شهاب الدين القسطلاني : (ولما كان البارئ سبحانه وتعالى واجب الوجود لذاته قديماً موجوداً قبل وجود الأشياء وكان كل مولود محدثاً انتفت عنه الوالدية ، ولما كان لا يشبهه أحد من خلقه ولا يجانسه حتى يكون له من جنسه صاحبة فيتوالد انتفت عنه الولدية ومن هذا قوله تعالى ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ﴾ (الأنعام: ١٠١))[١] .

فرد الله على ذلك أنه هو (الأحد) أي الذي ليس كمثله شيء في صفاته ، وأنه (الصمد) أي الغني عن كل ما سواه ، وكل شيء إليه محتاج ، وأنه له الكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، وأنه (لم يلد ولم يولد) لأنه لا أول لوجوده ، وأنه (لم يكن له كفواً أحد) أي لم يماثله أحد ولم يشاكله .

وهذان الاسمان وهما الأحد والصمد من أجمع الأسماء لصفات الله عز وجل ، كما أشار لذلك شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية في شرحه لسورة الإخلاص : (و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ اشتملت على التوحيد العلمي القولي نصاً وهي دالة على التوحيد العملي لزوماً ولهذا كان النبي صلى الله عليه و سلم يقرأ بهما في ركعتي الفجر وركعتي الطواف وغير ذلك وقد ثبت أنه كان يقرأ أيضا في ركعتي الفجر بآية الإيمان التي في البقرة ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ١٣٦) في الركعة الأولى وآية الإسلام التي في آل عمران ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (آل عمران) .

و المقصود هنا أن صفات التنزيه يجمعها هذان المعنيان المذكوران في هذه السورة :

أحدهما : نفي النقائص عنه ، وذلك من لوازم إثبات صفات الكمال فمن ثبت له الكمال التام انتفى النقصان المضاد له والكمال من مدلول اسمه الصمد .

و الثاني : أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة وهذا من مدلول اسمه الأحد فهذان الاسمان العظيمان الأحد الصمد يتضمنان تنزيهه عن كل نقص وعيب وتنزيهه في صفات الكمال أن لا يكون له مماثل في شيء منها واسمه الصمد يتضمن إثبات جميع صفات الكمال . فتضمن ذلك إثبات جميع صفات الكمال ونفي جميع صفات النقص ، فالسورة تضمنت كل ما يجب نفيه عن الله وتضمنت أيضا كل ما يجب إثباته من وجهين : من اسمه الصمد ، ومن جهة أن ما نفى عنه من الأصول والفروع والنظراء مستلزم ثبوت صفات الكمال أيضاً فإن كل ما يمدح به الرب من النفي فلابد أن يتضمن ثبوتاً بل وكذلك كل ما يمدح به شيء من الموجودات من النفي فلا بد أن يتضمن ثبوتاً وإلا فالنفي المحض معناه عدم محض والعدم المحض ليس بشيء فضلاً عن أن يكون صفة كمال .

وهذا كما يذكره سبحانه في آية الكرسي مثل قوله ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴾ (البقرة: ٢٥٥) ، فنفي أخذ السنة والنوم له مستلزم لكمال حياته و قيوميته ، فإن النوم ينافي القيومية و النوم أخو الموت)[٢] .

---

[١] إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري (٧/ ١٣) .

[٢] مجموع الفتاوى (١٧/١٠٨-١٠٩) .

الدليل السابع :

إن من وصف قدرة الله أو علمه أو أي صفة من صفات الله أو أفعاله بالنقص فهو إنما يصف ذات الله سبحانه وتعالى بالنقص ، فإن الصفة والفعل راجعان للذات ، فالذات التي لها الكمال تكون صفاتها وأفعالها كمال لا نقص فيها ، والذات الناقصة تكون صفاتها وأفعالها مشوبة بالنقص .

وقد يطلق الاسم أو الوصف ويشترك فيه الرب و المربوب ، كقولك : حي ، فالله سبحانه حي ، وهو أمر معلوم بضرورة العقل حيث أن تدبير الكون واستمراريته لا تصدر إلا من فاعل والفاعل لا يكون إلا حياً ، وبالشرع ، كما في قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ (البقرة: ٢٥٥) ، والمربوب حي . فكيف السبيل إلى التفريق بين الوصفين ؟ التفريق بينهما لن يحصل إلا بالتقييد فالخالق يتميز عن المخلوق بالكمال المطلق في الذات والأفعال والصفات حيث أن لكلاهما حياة ولكن حياة الله ليس لها نهاية ولا بداية فلا يقابلها موت لأنه سبحانه أول بلا ابتداء وآخر بلا انتهاء ، وحياة البشر لها بداية ونهاية ويقابلها موت فكانت نقصاً من هذا الوجه ، وبهذا التقييد للمخلوق استوجبت منه الافتقار إلى الخالق ، فصفة الخالق لائقة بذاته وصفة المخلوق مناسبة لعجزه وافتقاره وبين الصفة والصفة من المخالفة كمثل ما بين الذات والذات .

ثم إن خالق الخلق قد خلق قدراً من الكمال في مخلوقاته وهذا الكمال متفاوت بينهم إلا أن كمال أكملهم لابد وأن يكون ناقصاً قياساً على كمال الله سبحانه وهذا يشمل كل من الذات والصفات والأفعال ، فإنه سبحانه متفرد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله .

فصفات الكمال مثل القدرة والعلم والحكمة والتي يتصف بها الخالق تختلف عن صفات الكمال التي يتصف بها خلقه ، فالخالق سبحانه له الكمال المطلق الذي لا يشوبه نقص ، وليس هذا إلا لله وحده ، والخلق لهم الكمال المقيد أي الكمال الذي يشوبه النقص وتعتريه الآفات . وقد اجتمعت صفات النقص والكمال عند المخلوقين فكانت شفعاً من هذا الوجه وانفرد الله سبحانه بصفات الكمال دون النقص وحده فكانت وتراً ، وهو ما أشار إليه أبو بكر الورَّاق حيث قال :

(الشفع : تضادُّ أوصاف المخلوقين : العز والذل، والقدرة والعجز ، والقوَّة والضعف ، والعلم والجهل ، والحياة والموت ، والبصر والعَمَى ، والسمع والصَّمَم ، والكلام والخَرَس. **والوتر: انفراد صفات الله تعالى: عِز بلا ذل ، وقدرة بلا عجز ، وقوَّة بلا ضعف ، وعلم بلا جهل ، وحياة بلا موت ، وبصر بلا عَمًى، وكلام بلا خَرَس ، وسمع بلا صَمَم ، وما وازاها**) [1] .

فكما أن الله سبحانه وتعالى متصف بصفات الكمال فهو أيضاً متصف بكمال هذه الصفات . بمعنى آخر **فكما أن الله سبحانه وتعالى منزه عن صفات النقص فإنه كذلك منزه عن النقص في صفاته .**

مثال ذلك أن الله متصف بالقدرة ، وهي صفة كمال ، والقدرات مراتب ، فمنها الناقص ومنها الكامل ، والله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير ، **لأن الله سبحانه وتعالى متصف بالكمال ومنزه عن النقص في كل صفاته** ، فهو القدير سبحانه المتصف بكمال القدرة ومنزه أن تكون قدرته ناقصة أو أن يستثنى منها شيء ولو في جزئية . فمن لم يؤمن بقدرة الله ولو في

[1] تفسير القرطبي (٢١/ ٢٦٠) .

جزئية ما ، لا يكون مؤمنًا بقدرة الله تعالى الحقيقية إذ أن قدرة الله عامة تامة كاملة ، فمن أخرج شيئًا من هذا العموم يكون قد نسب لله النقص في صفة من صفاته ولو كان جاهلاً أو متأولاً . بل من لم يؤمن بكمال قدرة الله عز وجل لا يسمى أنه آمن بأن الله قادر إذ الإيمان بأن الله قادر معناه الإيمان بأن الله على كل شيء قدير .

ومثال آخر وهو أن الله متصف بالعلم ، وهي صفة كمال ، والعلم درجات ومراتب منه القليل والناقص ومنه الكامل ، والله سبحانه وتعالى بكل شيء عليم ، **لأن الله سبحانه وتعالى متصف بالكمال ومنزه عن النقص في كل صفاته** ، فهو العليم سبحانه المتصف بكمال العلم ، فعلمه يشمل ما نظهره وما نكتمه ، وما كان ، وما يكون ، وما سنفعله ، فهو سبحانه منزه أن يكون علمه ناقصاً أو أن يستثنى منه شيء ولو في جزئية . فمن لم يؤمن بأن الله يعلم السر وأخفى ، أو لم يؤمن بأن الله يعلم ما سيفعله الإنسان ، أو أخرج من عموم علم الله شيئاً معيناً فهذا لا يسمى أنه آمن بكمال علم الله عز وجل ، ويكون بذلك نسب لله النقص في صفة من صفاته ولو كان جاهلاً أو متأولاً . بل من لم يؤمن بكمال علم الله عز وجل لا يسمى أنه آمن بأن الله عليم إذ الإيمان بأن الله عليم معناه الإيمان بأن الله بكل شيء عليم ، وقس على هذا باقي صفاته سبحانه وتعالى .

فالحذار الحذار من إغضاب رب الأرض والسماوات بنسبة ما لا يليق به سبحانه و البِدار البدار إلى تنزيهه والثناء عليه سبحانه وتعالى فإنه يفرح بثناء العبد عليه ويرضى به ويحبه ، ورحم الله الإمام ابن القيم حين قال :

(إنه سبحانه كما يبغض هذا الإفك والباطل الذي قاله فيه أعداؤه ويشتد غضبه منه ويؤذيه ذلك إذ لا ينقصه [1] كما أخبر به عن نفسه بقوله ﴿ يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ ﴾ [2] فهو سبحانه يفرح بثناء المثني عليه بأوصاف كماله ونعوت جلاله أعظم فرح ويرضى به ويحبه ، وإذا كان يفرح بتوبة التائب أعظم فرح يقدر فكيف فرحه سبحانه بالثناء عليه وحمده ومدحه وتمجيده بما يصفه به أعداؤه مما لا يليق بكماله مما يتضمن فرحه ومحبته ورضاه أعظم من ذلك ، فإن محبته تغلب غضبه وفضله أوسع من عدله ، وهو سبحانه كما أنه موصوف بكل كمال فهو منزه عن كل نقص وعيب فكما أنه موصوف في أفعاله بكل حمد وحكمة وغاية محمودة فهو منزه فيها عن كل عيب وظلم وقبيح وبهذا استحق أن يكون محموداً على كل حال وأن يكون محموداً على المكاره كما هو محمود على المحاب) [3] .

---

[1] أي لا ينقصه سبحانه وتعالى ما يقوله فيه أعداؤه .

[2] جزء من حديث قدسي رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الألفاظ من الأدب / باب النهي عن سب الدهر ، ط. المكنز (ص ١١٨٥ ، حديث رقم ٦٠٠٠) ، الطبعة السلطانية (٧/ ٤٥) ، ولا يعني هذا الأذى هنا تضرر الله سبحانه وتعالى من ذلك ، فهو منزه عن أن يضره أحد سبحانه وتعالى ، ولقد أخبر الله عز وجل بعقاب من يؤذيه أو رسوله فقال عز من قائل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ (الأحزاب)

[3] الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٤/ ١٤٩٥) .

فصل : هل من الممكن التوصل إلى معرفة صفات الربوبية بالعقل قبل ورود الشرع ؟

وهنا قد يتساءل البعض فيما إذا كان يستطيع الإنسان أن يعرف صفات الربوبية بعقله وإعمال فكره قبل وصول دعوة الأنبياء – صلوات الله وسلامهم عليه – إليه ؟ وهو ما يسميه العلماء بحصول معرفة الله ، هل تحصل بالعقل حتى قبل ورود الشرع ، أم أنه لا يحصل إلا بالشرع وحده ؟

فنقول بحول الله تعالى : إن معرفة الله أي معرفة صفات الربوبية يتوصل لها بالعقل حتى قبل ورود الشرع . ولهذا فإن العلماء يسمون صفات الربوبية بالصفات العقلية ، وليس ذلك لأن مرجع تمييز الصفات التي هي شرط في صحة التوحيد مما ليست كذلك هو العقل ، بل إن الشرع هو المرجع في هذه المسألة كما في جميع مسائل الدين ، وقد بينا الدليل على هذه الصفات في بداية الرسالة ، ولكن لما كانت صفات الربوبية تعلم بالعقل سمى العلماء هذه الصفات بالصفات العقلية . وقد أشار لذلك الإمام البيهقي بتفصيل جيد حيث قال :

(صفات الله عز اسمه قسمان : أحدهما : صفات ذاته وهي ما استحقه فيما لم يزل ولا يزال ، والآخر : صفات فعله وهي ما استحقه فيما لا يزال دون الأزل ، فلا يجوز وصفه إلا بما دل عليه كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أجمع عليه سلف هذه الأمة [1] ، ثم منه ما اقترنت به دلالة العقل كالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام ونحو ذلك من صفات ذاته ، وكالخلق والرزق والإحياء والإماتة والعفو والعقوبة ، ونحو ذلك من صفات فعله ومنه ما طريق إثباته ورود خبر الصادق به فقط كالوجه واليدين والعين في صفات ذاته ، وكالاستواء على العرش والإتيان والمجيء والنزول ونحو ذلك من صفات فعله ، فثبتت هذه الصفات لورود الخبر بها على وجه لا يوجب التشبيه) [2] .

فإن العقل الصريح والفطر السليمة تدل على صفات رب العالمين سبحانه وكمالها ولزوم الخضوع والطاعة وإخلاص العبادة له وحده ، وذلك بالنظر والتفكر في ملكوت السماوات والأرض وعظمته ودقته وجماله الباهر .

والخبر الصحيح الذي أرسل به النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه يدل على أن العقول والفطر السليمة يمكنها أن تتعرف على صفات الربوبية وأن الله له الكمال المطلق وأنه منزه عن جميع النقائص والمعائب والآفات في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، وذلك بالتفكر والتدبر في آيات الله الكونية كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (البقرة)

---

[1] الإجماع لا ينبني إلا على نص شرعي فتنبه .

[2] الأسماء والصفات (١/ ٢٧٦) .

قال ابن كثير : (﴿ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي : في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران))[١].

وما أصدق ما قال الشاعر :

فَوَاعَجَباً كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

قال الحافظ ابن تيمية : (الإقرار بالخالق وكماله يكون فطرياً ضرورياً في حق من سلمت فطرته ، وإن كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة ، **وقد يحتاج الأدلة عليه كثير من الناس عند تغير الفطرة وأحوال تعرض لها**)[٢] . وقال نقلاً عن الشهرستاني : (فإن الفطرة السليمة الإنسانية شهدت بضرورة فطرتها وبديهة فكرتها على صانع حكيم قادر عليم)[٣] . وقال الحافظ ابن تيمية في موضع آخر : (إن الكمال ثابت لله ، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية ، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب تعالى ، يستحقه بنفسه المقدسة ، وثبوث ذلك مستلزم نفي نقيضه ؛ فثبوت الحياة يستلزم نفي الموت ، وثبوت العلم يستلزم نفي الجهل ، وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز ، **وإن هذا الكمال ثابت له بمقتضى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية ، مع دلالة السمع على ذلك**)[٤] .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : (إنه قد ثبت بالعقل الصريح والنقل الصحيح ثبوت صفات الكمال للرب سبحانه وأنه أحق بالكمال من كل ما سواه **وأنه يجب أن تكون القوة كلها له والعزة كلها له والعلم كله له والقدرة كلها له والجمال كله له وكذلك سائر صفات الكمال** وقام البرهان السمعي والعقلي على أنه **يمتنع أن يشترك في الكمال التام اثنان وأن الكمال التام لا يكون إلا لواحد**[٥] وهاتان مقدمتان يقينيتان معلومتان بصريح العقل)[٦] . وقال في موضع آخر : (وكذلك تنزيهه عن النقائص والعيوب هو أمر مستقر في فطر الخلائق خلافا لمن قال من المتكلمين أنه لم يقم دليل عقلي على تنزيهه عن النقائص وإنما علم بالإجماع ، قبحا لهاتيك العقول فإنها عقال على أصحابها ووبال ، **فليس في العقول أبين ولا أجلى من معرفتها بكمال خالق هذا العالم وتنزيهه عن العيوب والنقائص** وجاءت الرسل بالتذكرة بهذه المعرفة وتفصيلها)[٧] . وقال في موضع آخر : (فوجوده

---

[١] تفسير ابن كثير (١/ ١٤١) .

[٢] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٦/ ٧٣) .

[٣] درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٩٧) .

[٤] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٦/ ٧١) .

[٥] قال أبو حامد الغزالي : (والأنبياء والصدِّيقون وإن كانوا مُنَزَّهين عن العيوب والخبائث فلا يتصوَّر كمال التقدُّس والتنزه إلا للواحد الحق الملك القدّوس ذي الجلال والإكرام . وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزاً مخلوقاً مسخراً مضطراً هو عين العيب والنقص ، فالكمال لله وحده) . (إحياء علوم الدين ، ٤/ ٢٩٧) .

[٦] الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٣/ ١٠٨٠) .

[٧] شفاء العليل ، ص ٤٩٨ .

سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الإطلاق ، فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار ، وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده ، فما ينكره إلا مكابر بلسانه وقلبه وعقله وفطرته ، وكلها تكذبه)[1] .

إضافة لذلك فإن الخلق كلهم شهدوا بربوبية الله عز وجل قبل ولادتهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾ (الأعراف) وتسمى هذه الحجة التي أخذت على العبيد قبل ولادتهم بحجية الميثاق ، ولكن الله سبحانه وتعالى من رحمته على العباد أنه لم يكتفي بحجية العقل والفطرة ولا بحجية الميثاق ، بل أرسل الرسل ليبلغوا للناس دعوة التوحيد ، وأنزل معهم الكتب ، فعلق سبحانه وتعالى العذاب على بعثة الرسل إعذاراً وإنذاراً فلم يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسل كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ (الإسراء) .

فصل : إن صفات الربوبية هي منشأ لاتصاف الله سبحانه وتعالى بالألوهية

إن الله سبحانه وتعالى هو الوحيد المتصف بصفات الربوبية المتضمنة اتصافه وحده بالكمال في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله وهذا هو منشأ لاتصافه بالألوهية ، بل وكثيراً ما يقرر الله سبحانه وتعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية وهذه نتيجة مقررة ومبسوطة في غير ما موضع من كتب التفسير عند تناولهم لآيات الربوبية كقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (العنكبوت).

فالإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الله بالألوهية . قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (يونس) :

(يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الإله ، فقال : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقًا بقدرته) إلى أن قال (وقوله: ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ أي: من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسْألون ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الرحمن) ، فالملك كله العلوي والسفلي ، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه ، عبيد له ، خاضعون لديه ، ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ أي: هم يعلمون ذلك ويعترفون به، ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي: أفلا

[1] مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٩) .

تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم ؟ وقولـه ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أي : فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو : ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبـادة ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أي فكل معبود سواه باطل ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له . ﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبـادة مـا سـواه ، وأنتم تعلمون : أنه الرب الذي خلق كل شيء ، والمتصرف في كل شيء !!!) .[1]

واعلم أن إثبات توحيد العلم والمعرفة مقدم على توحيد القصد والطلب شرعاً وعقلاً كما أشار لذلك شيخ الإسـلام محمـد ابن عبد الوهاب حين قال : (فأما توحيد الربوبية فهو الأصل ولا يغلط في الإلهية إلا من لم يعطه حقه ، كما قال تعالى فيمن أقـر بمسألة منه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (الزخرف))[2] .

والرسل عليهم الصلاة والسلام كان تركيزهم على دعوة الناس إلى توحيد الألوهية أكثـر مـن توحيـد الربوبيـة ، لـيس لأن توحيد الألوهية مقدم على توحيد الربوبية ، ولكن لأن معظم الناس مقرون بتوحيد الربوبية .

قال الشهرستاني : (فما عددت هذه المسالة توحيد الربوبية من النظريات التي يقام عليها برهان فان الفطر السليمة الإنسانية شهدت بضرورة فطرتها و بديهة فكرتها على صانع حكيم عالم قدير ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (إبراهيم: ١٠))[3] .

فالرسل عليهم الصلاة والسلام كانوا يذكرون أقوامهم بتوحيد الربوبية تذكيراً ، وكأنهم يذكرونهم بالميثاق الذي أخـذه الله سبحانه وتعالى عليهم قبل خلقهم ، وبما هو مركوز في فطرتهم ، فغالب أقوامهم كانوا مقرون ومعترفون بأن الله رب كل شيء ، ولكن كان شركهم في العبادة ، لذا كانت دعوة الرسل الأساسية لأقوامهم دعوةٌ إلى توحيد الرب سبحانه وتعالى الذي يقـر بـه أقوامهم ، وإن وجد في أقوامهم أناس فسدت فطرتهم وتشوهت معرفتهم بالله قاموا بتصحيح هـذا الفـساد والتـشوه الحاصـل عندهم .

لذا وجب على الموحدين اقتفاء أثر الأنبياء والمرسلين في الدعوة إلى توحيد الله عز وجل ، فمن كـان مقـراً بتوحيـد الربوبيـة يُلزم بعبادة الله وحده لا شريك له ، ومن كان كفره في الربوبية كالنصارى والقدرية والمجـوس أو في عـدم الإيـمان بوجـود الله أصلاً كالشيوعيين ، فهؤلاء يتحتم في دعوتهم بداية تعريفهم برب العالمين والتفصيل لهـم في صـفات الربوبيـة التـي تفـرد بهـا سبحانه دون ما سواه ، وإلزامهم التوبة والرجوع عن معتقدهم الباطل حتى يصح توحيدهم .

بالإضافة إلى ذلك فإن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية ولا بد كما أشار لذلك الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرحـه للطحاوية حيث قال : (وَتَوْحِيدُ الإِلَهِيَّةِ مُتَضَمِّنٌ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ دُونَ الْعَكْسِ ، فَمَـنْ لاَ يَقْـدِرُ عَـلَى أَنْ يَخْلُـقَ يَكُـونُ عَـاجِزًا ، وَالْعَاجِزُ لاَ يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا . قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾ (الأعراف) ، وَقَالَ تَعَـالَى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن

---

[1] تفسير ابن كثير (٧/ ٣٦٠-٣٦١) .

[2] الدرر السنية في الأجوبة النجدية (٢/ ٦٤) .

[3] نهاية الإقدام في علم الكلام ، ص ١٢٤ .

﴿ لَا يَخْلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (النحل) ، وقال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ (الإسراء)) [١] اهـ .

قال الحافظ ابن تيمية رحمه الله : (فإثبات الإلهية يوجب إثبات الربوبية ونفى الربوبية يوجب نفى الإلهية إذ الإلهية هي الغاية وهي مستلزمة للبداية كاستلزام العلة الغائية للفاعلية ، وكل واحد من وحدانية الربوبية والإلهية وإن كان معلوماً بالفطرة الضرورية البديهية وبالشريعة النبوية الإلهية فهو أيضاً معلوم بالأمثال الضرورية التي هي المقاييس العقلية)[٢] . وقال رحمه الله في موضع آخر : (وإقراره بألوهية الله تعالى دون ما سواه يتضمن إقراره بربوبيته وهو أنه رب كل شيء ومليكه وخالقه ومدبره ، فحينئذ يكون موحداً لله) [٣] .

فالتوحيدين لا ينفك أحدهما عن الآخر ودعوة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام إلى ألوهية الله عز وجل تتضمن في طياتها الدعوة إلى ربوبيته سبحانه وتعالى . فمن السذاجة الجمود على بعض الأقوال والاكتفاء بظاهر ما دلت عليه دون الوقوف على مناسبة ورودها أو حقيقة مراد أصحابها . لذا لا يصح بحال أن نقرر وجوب دعوة الناس إلى إفراده سبحانه بالعبادة وقبول الإسلام منهم مع ما يلحقونه من نقص في ذات الله أو صفاته أو أفعاله ، فهذه ليست حقيقة دعوة الأنبياء والمرسلين ، ولا يقوله عاقل فضلاً عن مسلم ، والله المستعان وعليه التكلان .

فصل : شرح تصفيون بن العطار رحمه الله لصفات الربوبية

فلقد وقعت عيني بفضل الله عز وجل وتوفيقه على كتاب لأحد الرحالة القدماء الذين ساروا إلى الأندلس وهو شهاب الدين أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي المتوفى بعد سنة ١٠٤٨ هـ ، وفي أثناء رحلته في الأندلس عثروا على مخطوطات قديمة في كهف قديم تعود إلى القرن الأول للميلاد ، وفيها رسالة للأعرابي تصفيون بن العطار وهو من أصحاب سِسِلْيُوه رضي الله عنه وعن صاحبه ، فلقد كانوا على دين سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ، ولقد أمر بإحراقهم الطاغوت نيرون – جزاه الله بما يستحق – ، وهذه هي رسالة الشهيد تصفيون بن العطار[٤] رضي الله عنه في توحيد الله عز وجل حيث قال رحمه الله :

(الدوام لا يزال هو في الله ؛ أول كل شيء ؛ الذي ليس لبدايته ابتداء ولا لفضيلته انقضاء ؛ لا يبلغ كنه صفاته الواصفون ، ولا يتفكرون في مائية ذاته المتفكرون ؛ ليس أحد من العالمين رآه عين النظر ؛ ملكه لا يزال لأنه إن زال ملكه ما كان الله .

وله صفات لا تتبدل ، لأن إن تبدلت صفاته ما كان الله ، له جلالة لا تدرك ، لأنها إن أدركت كان نقصانا به ، له عظمة لا تنفك ، لأنها إن انفكت عظمته أتاه النقصان ، وليس ذلك واسع فيه أبداً .

---

[١] شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٤١) .

[٢] مجموع الفتاوى (٢/ ٣٧) .

[٣] مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٢٥) .

[٤] إن هذه الرسالة ما يهمنا فيها المضمون أكثر من حقيقة نسبتها للمؤلف ، فلقد أحببت إدراجها في هذه الرسالة لأنني رأيتها كملخص لرسالة المنجدة ، فنذكرها هنا على سبيل الاستئناس لا على سبيل الاستشهاد .

هو ذو علم دون جهل ، علم كل شيء قبل كونه . وهو ذو قدرة دون نقصان ، وهو ذو رحمة وفضل دون امتنان ، هو ذو علم قسط لا يفنى أبداً .

ليس له احتياج لأحد من العالمين ليزداد سلطانه ، وليس دونهم له نقصان في ذاته ولا في ملكه ، وكل ما خلق خلقه من رحمته دون احتياج .

الموجودات كون وهو المكون ، لو أمر الدنيا بالغرق بمن عليها لدامت في غرق ما دام ملكه ، ولا يزال ولا تصيب مستقراً لها في موضع .

هو خلق كل شيء وليس بمخلوق . هو مؤانس وليس مؤانس له .

هو ذو علم ما دون احتياج من غيره . هو ذو رحمة ما دون نقصان . هو أول كل شيء ليس قبله شيء ، وبعد كل شيء ليس بعده شيء ، إله ليس شيء مثله .

ليس هو كم ولا عدد ولا فصل ولا فوق ولا تحت ، ولا وهم ولا خيال ، ولا كلام ولا لغة ، ولا صنع مثل خيالنا .

هو فوق العقول ليس يوصف ؛ له الجلال والكمال ؛ وذلك هو في وحدانيته ، لا يفهم الله إلا الله ، له العظمة والعبادة والشكر على كل شيء ؛ والإيمان ما دون ذلك خسران)[1] .

فانظر هداك الله إلى هذا الشرح البليغ من هذا الموحد الحنيف الذي عاش في القرن الأول للميلاد أي قريباً من وقت سيدنا عيسى عليه السلام وانظر إلى شرحه لصفات الربوبية ، وكيف أنه قرر الكمال المطلق لله عز وجل ، ومن ثم قرر توحيد الله بالعبادة بناء على ربوبيته سبحانه وتعالى ، وأنه لا عذر بالجهل في ذلك كله حيث قال : (والإيمان ما دون ذلك خسران) فكأنه قرر في رسالته أصل الدين ، وأقل حد واجب للمرء معرفته من صفات الله عز وجل لكي يكون موحداً ، فنسأل الله أن يرضى عنه ويرحمه برحمته ويجمعنا وإياه في جنات النعيم ، إنه على كل شيء قدير .

فصل : هل حفظ صفات الربوبية شرط في صحة معرفة الله عز وجل ؟

وهنا تساؤل مهم يجب الإجابة عنه وهو: هل يجب على المسلم أن يكون حافظاً لكل الصفات السابقة الذكر حتى تصح معرفته لله عز وجل أم يكفيه معرفة حقائقها و أحكامها ؟

فالجواب هو : إن معرفة الله عز وجل ، وكذلك تنزيهه سبحانه وتعالى عن جميع النقائص والمعائب ومشابهة خلقه في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله أمر فطري مغروس في أعماق كل من لم تتشوَّه فطرته ، ويعبر كل قوم عنه حسب لسانهم ولهجتهم الدالة على تنزيه الله عز وجل عن كل نقص ، بل وقد يعجز حتى البعض عن التعبير ولا يلزمه منه الجهل بربه سبحانه ، لأنك بمجرد أن تعبر له عن الصفات المتعلقة بربوبية الله عز وجل يوافقك عليه ، وبمجرد ما يسمع من ينسب إلى الله سبحانه ما لا يليق به يثور وينكر ذلك أشد ما إنكار . فمن آمن بقلبه بكل الصفات السابقة الذكر ، ووحد الله بها ، وعمل بمقتضاها من عبادة الله

---

[1] ناصر الدين على القوم الكافرين ، ص ٢٣-٢٤ .

وحده لا شريك له والتبرؤ من الشرك والمشركين ، لكن نقصته العبارة وسرد الأدلة فهو مؤمن موحد كحال معظم أهل القبلة ، المهم أن يوافقنا لو عبرنا له عن هذه الصفات ، ليس المهم أن يحفظ هذه الصفات حفظاً ، ويسردها سرداً بالتفصيل [1] .

قال الحافظ ابن كثير : (قال عمر لعلي وأصحابه عنده : لا إله إلا الله قد عرفناها ، فما سبحان الله ؟ فقال له علي : كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال ، قال : وحدثنا أبي حدثنا ابن نفيل حدثنا النضر بن عربي قال سأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله ، فقال اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء) [2] .

فهؤلاء صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن بعضهم يعلم معنى كلمة سبحان الله ، ولكن لا يعني ذلك أنهم كانوا يجهلون مقتضى هذه الكلمة ، فهم أكثر الخلق تنزيهاً لرب العالمين عن النقائص ، وأحرصهم على تعظيم الله وتقديسه سبحانه ، فجهل العبارة لا يعني جهل مقتضاها بحال ، فمن كان عالماً بأصل المعنى وجهل التعبير والسرد فهو معذور .

قال الإمام محمد بن خليل السكوني الإشبيلي : (المسألة الرابعة : من مات وهو لم يعلم ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حق الله تعالى ، هل هو هالك أو ناج ؟ قال الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى : "الناس على قسمين عالم وجاهل ، فالعالم ناج والجاهل هالك" ، قال القاضي رضي الله عنه: "إن اعتقد بقلبه الحق في حق الله تعالى فإنه ناج لأنه أقر بلسانه ، وبلا شك أنه ما أقر بلسانه في الغالب إلا وهو من زمرة المؤمنين عارفٌ بقلبه ، **وإنما نَقَصَتْه العِبَارَة وسَردُ الأَدِّلَة** ؛ وكيف يكون هالكاً وهو ليس بمصمم على الباطل ، والدليل على ذلك أنّا **لو عبّرنا له عبارة ظاهرة وسردنا له الأدلة لوافقنا وعقِل معنا**، لكنه قال القاضي ضَيَّعَ فَهُوَ مَلُومٌ على ذلك من غير أن تخرجه عن أهل القبلة ، **وكذلك سائر عامة المسلمين أسلموا بألسنتهم ، واعتقدوا بقلوبهم ، ونقصتهم العبارة فجميعهم مؤمن مسلم** " .

وظهر أنه لا اختلاف بين الشيخين لأن الجهل هو اعتقاد المعتقد على خلاف ما هو به وعقد المؤمن ليس كذلك.

المسألة الخامسة : من مات وهو لم يعرف انفراد الله تعالى بالخلق و الاختراع فهو على جاهلية ، والفرق بينه وبين المسألة التي قبل هذه أن الأول عجز عن العبارات وهذا الثاني أبدى الخلاف وانتصر لمذهب الباطل كالقَدَري والزَّمخشري ، فهؤلاء القدرية كما قال عليه السلام: « **القَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ** » [3] ، لقولهم : إنهم يخلقون أفعالهم ، وقد رد الله عليه بقوله سبحانه : ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ (القمر) ، وهو تعالى يقول: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ (فاطر: ٣) ، وهم يقولون إنهم يخلقون أفعالهم ، تعالى الله عن مذهبهم علواً كبيراً ، وهي من أكبر المسائل بيننا وبينهم فمن أراد أن يستوفيها فعليه بكتب أهل السنة يجدها مبينة بحول الله تعالى) [4] . اهـ

---

[1] وقد خالف في هذا فرقة من فرق الضلال وهم المعلومية ، قال الشهرستاني في الملل والنحل (١/ ١٨٠) : (ان المعلومية قالت : من لم يعرف الله تعالى بجميع أسمائه وصفاته فهو جاهل به حتى يصير عالماً بجميع ذلك فيكون مؤمناً) اهـ . وهذا الكلام لم يقل به أحد من السلف الصالح بل أقوال السلف الصالح على خلافه .

[2] تفسير ابن كثير (١/ ٣٥٠-٣٥١) .

[3] سنن أبي داوود ، كتاب السنة / باب في القدر ، ط. المكنز ، ص ٩٢٢ ، حديث رقم ٤٦٩١ .

[4] أربعون مسألة في أصول الدين ، ص ٥٧-٥٩ .

وهنا مسألة مهمة نعود لنكررها وهي أن من نزه الله سبحانه وتعالى عن النقائص مطلقاً فهو في الحقيقة قد أثبت لـه الكـمال المطلق ، وتوضيح ذلك أن الموحد الذي ينزه الله عن العجز مطلقاً فإنه في الحقيقة قد أثبت له كمال القدرة حتى ولـو عجـز عـن التعبير عن ذلك بلسانه ، وكذلك من نزه الله سبحانه وتعالى عن الجهل مطلقاً فهو في الحقيقة قد أثبت له كمال العلم حتـى ولـو عجز عن التعبير عن ذلك بلسانه . مما يعني أن الموحد الذي ينزه الله سبحانه وتعالى عن النقائص مطلقاً فهو في الحقيقة قد أثبت لله الكمال المطلق حتى ولو عجز لسانه عن التعبير عن هذه الصفات وسردها.

فصل : معرفة الله دون الاستسلام له وحده غير كافٍ في الإيمان

ولا يكفي معرفة صفات الربوبية لكي يصبح المرء مؤمناً موحداً إلا بأن يوحد الله بهذه الصفات أي يعتقد تفرد الله بهذه الصفات وبأن ينقاد ويخضع لله وحده بهذه الصفات . قال تعالى : ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ (لقمان) ، وقال تعالى عن ملكة سبأ : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (النمل)

فالتوحيد هو الاستسلام لرب العالمين وحده ، قال الله عز وجل : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (غافر)

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب : (المراد من شـهادة أن لا إلـه إلا الله هـو الإقـرار بهـا علـماً ونطقـاً وعملاً خلافاً لما يظنه بعض الجهال أن المراد من هذه الكلمة هو مجرد النطق بها أو الإقرار بوجود الله أو ملكه لكل شيء من غير شريك فإن هذا القدر قد عرفه عباد الأوثان وأقروا به فضلاً عن أهل الكتاب ولو كان كذلك لم يحتاجوا إلى الدعوة إليه) [١] .

وقال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية : (لكن مجرد المعرفة بالصانع لا يصير به الرجل مؤمناً ، بـل ولا يـصير مؤمنـاً بـأن يعلم أنه رب كل شيء حتى يشهد أن لا إله إلا الله) [٢] .

فمشركي قريش كانوا يعلمون هذه الصفات ، ولم ينفعهم هذا العلم إذ لم يعملوا بمقتضاه مـن الاستـسلام لله وحـده بهـذه الصفات . ومن أمثلة ذلك الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى حيث يقول في معلقته المشهورة :

فَلا تَكْتُمُنَّ اللَّـهَ مَا فِي نُفُوسِكُمْ ... لِيَخْفَى ، فَمَهْمَا يُكْتَمِ اللَّـه يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ ... لِيَوْمِ حِسَابٍ ، أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ

---

[١] تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، ص ١٢٦ .

[٢] درء تعارض العقل والنقل (٨/ ١١) .

قال الحافظ ابن كثير معقبا على ما سبق : (فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع ، وعلمه بالجزئيات ، وبالمعاد وبالجزاء ، وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيامة) [١].

ولا يعني أنه لم يوجد فيهم من نسب لله صفات النقص أو النقص في صفاته ، ولم يقدروا الله بذلك حق قدره ، مثل ما سبق معنا في الرجل الذي نسب لله النقص في قدرته ، ومثل الثقفيان والقرشي الذين نسبوا الله النقص في علمه ، وكما قال تعالى عن بعض المشركين : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (الأنعام)

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية نقلاً عن ابن جرير : (﴿ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ ﴾ يقول: وتخرصوا لله كذباً ، فافتعلوا له بنين وبنات بغير علم بحقيقة ما يقولون ، **ولكن جهلا بالله وبعظمته** ، وأنه لا ينبغي إن كان إلهاً أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة ، ولا أن يشركه في خلقه شريك) [٢] .

فلقد كان من مشركي قريش من يعتبر الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وكما قال تعالى في النصارى :

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ (مريم)

وأيضاً كانت بعض اليهود تصف الله بالبخل ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴾ (المائدة: ٦٤) ، ومنهم من وصف الله بالفقر تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ (آل عمران)

لكن عامة مشركي قريش كانوا يعترفون بربوبية الله عز وجل ، وإليك الآيات في ذلك .

قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (العنكبوت) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (العنكبوت) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (لقمان) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ (الزخرف) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (يونس) ، وقال تعالى : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ

---

[١] تفسير ابن كثير (٧/ ٤١٣-٤١٤) .

[٢] تفسير ابن كثير (٦/ ١٢١) .

قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (المؤمنون)

وتأمل تعقيب الله عليهم بعد إقرارهم بربوبيته ، تارة بقوله ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ وتارة بقوله عنهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ، وتارة بقوله عنهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وتارة بقوله : ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾، وتارة بقوله ﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، وتارة بقوله ﴿ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ ، كل ذلك ذم لهم أن علموا ربوبية الله عز وجل ولم يعملوا بمقتضاه من الاستسلام له وحده ، أي لم يوحدوا الله بالعبادة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (فإن اعترف العبد أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه محتاج إليه عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله ، وهذا العبد يسأل ربه فيتضرع إليه ويتوكل عليه ، لكن قد يطيع أمره وقد يعصيه وقد يعبده مع ذلك وقد يعبد الشيطان والأصنام ، ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة والنار ، ولا يصير بها الرجل مؤمناً كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (يوسف) فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (لقمان: ٢٥) ، وقال تعالى: ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (المؤمنون) إلى قوله ﴿ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (المؤمنون))[١] .

فالإيمان بربوبية الله العامة والمطلقة يلزم منه الإيمان بأن الله له الكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، ويقتضي هذا أن يفرد الله بغاية التعظيم وغاية الخضوع وغاية الذل وغاية الحب[٢] . ولكنهم اتخذوا من دون الله أنداداً أحبوهم كحب الله ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ (البقرة)

والإيمان بربوبية الله عز وجل بمعنى المصلح المربي يلزم منه الإيمان بأن الله هو المتصرف في هذا الكون ، وأن ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ويقتضي هذا أن يفرد الله بالدعاء ، والتوكل ، والخوف ، والرجاء . ولكنهم كانوا يدعون أصنامهم ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (يونس: ١٨) ، ويتوكلون عليهم . والعجيب أنهم كانوا يوحدون الله في الشدة ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (العنكبوت)

---

[١] مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٦) .

[٢] اعلم أن أصل مسألة الولاء والبراء ، أي حب التوحيد وأهله ، وبغض الشرك وأهله ، أصلها حب الله ، فمن أحب الله أحب ما يحبه الله وأبغض ما يبغضه الله ، فإنك إن تنبهت لهذا علمت أن أصل مسألة الولاء والبراء هي من أصل التوحيد لا يصح إلا به . قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (ونفس ولاية الله مخالفة لعداوته ، وأصل الولاية والعداوة الحب والبغض ، فأولياء الله هم الذين يحبون ما أحب ، ويبغضون ما أبغض وأعداؤه الذين يبغضون ما يحب ويحبون ما يبغض ، وقد قال تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ (المجادلة: ٢٢)) . (الرد على المنطقيين ، ص ٥٦٤) .

والإيمان بربوبية الله عز وجل بمعنى أنه السيد المطاع يلزم منه الإيمان بأن الله هو له الأمر كما له الخلق ، وأنه هو صاحب الحق في التحليل والتحريم والتشريع ، ويقتضي هذا إفراد الله بالحكم والتشريع ، وأن لا يستسلم إلا لشرعه ، وأن لا يتحاكم إلا لشرعه . ولكنهم كانوا يغيرون تشريعات الله ، ويضعون تشريعات من عند أنفسهم ، ومن أمثله ذلك تشريعات خاصة بالحيوانات ولقد أبطلها الله بقوله : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (المائدة) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (التوبة)

والإيمان بربوبية الله عز وجل بمعنى أنه السيد المطاع يلزم منه الإيمان أن الله له الحكم وحده ، ويقتضي هذا أن لا يتحاكم إلا إلى شرعه ، فانظر هداك الله كيف عد الله إيمان من أراد التحاكم إلى الطاغوت زعماً ، لأنه صرف صفة لا تجوز إلا لله عز وجل لغيره ، وإنما كان مأموراً بالكفر بالطاغوت ، لأن **الإيمان بأن الله وحده له الحكم معناه الكفر بما سواه أن يكون له حق في ذلك** . قال تعالى : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴿٦٠﴾ ﴾ (النساء)

والطاغوت : هو كل من ادعى صفة من صفات الله عز وجل فجاوز حد العبودية وصار بهذا الطغيان ومجاوزة الحد طاغوتاً وإلهاً باطلاً يجب الكفر به والبراءة منه ومن كل من يؤمن به ويواليه .

فصل : صفات الله عز وجل التي يعذر الموحد بجهلها

أما صفات الله عز وجل التي يعذر الموحد بجهلها هي الصفات التي لا يلزم الجهل بها جهلاً بربوبية الله عز وجل ، وهي بعض الصفات الخبرية ، وليست صفات الربوبية ، وقلنا بعض الصفات الخبرية لأن صفات الربوبية كما أنها تعلم بالعقل فهي أيضاً قد أخبر الله عز وجل بها عن طريق الوحي . فهذه الصفات التي لا يلزم الجهل بها جهلاً بربوبية الله عز وجل ، لا يعتبر جاهلها كافراً إلا إذا جحد هذه الصفات بعد بلوغها إليه ، فيكون كافراً لرده أمر الله ، وتكذيبه بالوحي .

أما من جهل صفة من الصفات التي لا تتم الربوبية إلا بها فكفره من باب أنه لم يحقق الإيمان أصلاً ، لأن الذي لا يعلم شيئاً لا يملك الاعتقاد به فضلاً على أن يحققه ، فإذا وجد شخص لا يعرف الصفات التي لا يتصور ربوبية الله إلا بها لم يعد من الممكن عقلاً ولا واقعاً ولا شرعاً وصفه بأنه قد عرف الله [1]**، ولا يكون الجهل عذراً يسبغ عليه صفة الإيمان ، ذلك أن الجهل**

---

[1] ومن هذه الصفات صفة القدرة أي أن الله على كل شيء قدير ، فتمعن في قول أبو بكر بن فورك في معرض شرحه لحديث الرجل الذي أمر أولاده بحرق جسده خشية من الله وخوفاً : (ولما قيل في الخبر إن الله تعالى يغفر له ، وقد علم أنه لا يغفر للكافرين ، وجب أن يُحمل لفظه على **تأويل صحيح ، لا ينافي المعرفة بالله عز وجل ولا يؤدي إلى الكفر**) (كتاب مشكل الحديث أو تأويل الأخبار المتشابهة ، ص ١٦٤) . لأنه لو حمل اللفظ المشكل الذي ورد في الحديث على أنه شكٌّ في قدرة الله ، لكان القول ينافي المعرفة بالله عز وجل ويؤدي إلى الكفر ، لأن من شك في قدرة الله ولو في جزئية لم يكن عارفاً بالله كما قد بينا

مانع للصفة ابتداءً ، فاعتقاد شيء فرع عن العلم به ، وهذا منطق العقل والواقع ، بل منطق البداهة الواضح ، فكيف يستحق المرء اسم الإيمان على الجهل ؟!!! فالإيمان قرين العلم واليقين ، والكفر والشرك قرينا الجهل والشك . [1]

وهذه الصفات الخبرية التي لا يمكن علمها إلا عن طريق الوحي هي صفات كمال أيضاً كسائر صفات الله عز وجل بلا شك ، ويجب الإيمان بها بأنها صفات لا تشبه صفات المخلوقين ، وأنها صفات تليق بجلال الله عز وجل وكماله ، دون التفكر في كيفيتها إذ معرفة كيفية صفات الله محجوبة عن العقول والأفهام .

ومن هذه الصفات صفة الاستواء على سبيل المثال ، فهذه الصفة لا يعني الجهل بها جهلاً بربوبية الله عز وجل ، ولا يمكن علمها أصلاً إلا عن طريق الوحي ، فأما من علم هذه الصفة وجحدها فهو كافر لأنه كذب بالوحي ورد أمر الله عز وجل . والموحد الذي يؤمن بهذه الصفة يؤمن بها دون تشبيهها بصفات المخلوقين ، ودون التفكير في كيفية هذه الصفة ، إذ رب العزة تبارك وتعالى ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ (الشورى: ١١) لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾ ﴾ (الإخلاص) .

قال الإمام أبو العباس القرطبي (٥٧٨-٦٥٦هـ) : (فإن العقول لها حد تقف عنده ، وهو العجز عن التكييف لا يتعداه[2] ، ولا فرق بين البحث في كيفية الذات وكيفية الصفات ، ولذا قال العليم الخبير : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى) ، ولا تبادر بالإنكار فعل الأغبياء الأغمار ، فإنك قد حجبت عن كيفية حقيقة نفسك مع علمك بوجودها وعن كيفية إدراكاتك مع أنك تدرك بها ، وإذا عجزت عن إدراك كيفية ما بين جنبيك فأنت عن إدراك ما ليس كذلك أعجز . وغاية علم العلماء وإدراك عقول الفضلاء ، أن يقطعوا بوجود فاعل هذه المصنوعات ، منزه عن صفاتها ، مقدس عن أحوالها ، موصوف بصفات الكمال اللائق به . ثم مهما أخبرنا الصادقون عنه بشيء من أوصافه وأسمائه ، قبلناه ، واعتقدناه ، وما لم يتعرضوا له سكتنا عنه ، وتركنا الخوض فيه ، هذه طريقة السلف ، وما سواها مهاوٍ وتلف) [3] .

لذا فإنه على الموحد أن يسلك طريق السلف ولا يبادر بإنكار صفات الله التي أخبر الله تعالى عنها في كتابه أو وردت في سنة النبي صلى الله عليه وسلم بحجة أنه يشعر بالتشبيه ، فوصف الله نفسه بصفة لا يقتضي التشبيه ، فلا يقتضي الاشتراك في الأسماء الاشتراك في الصفات . مثال ذلك إذا قرأت في كتاب الله قوله : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ (طه) لا تبادر بالإنكار ، فإثبات هذه الصفة لله لا يقتضي مشابهته لصفات المخلوقين ، فإن كنه الصفات محجوبة على العقول ، وما علينا إلا الإيمان

بحول الله عز وجل ، وقد بسطنا القول بفضل الله عز وجل وعونه في شرح هذا الحديث والرد على التأويلات الفاسدة لهذا الحديث وأمثاله في رسالتنا المسماة » توفيق اللطيف المنان في بيان أن الشاك في الله ليس من أهل الإيمان وأن الموالي له في الحكم سيان « فانظره للفائدة الأتم .

[1] وهذا الفرق من أهم الفروق فاستفده واحمد الله عليه فإنه باب قد ضل فيه الكثير نسأل الله أن يهدينا ويثبتنا على الإسلام .

[2] لذا فإن المسلم يجب عليه أن لا يفكر في ذات الله ، لأنها تفتح له باب الوسوسة والشكوك ، وكما قيل تفكروا في خلقه ولا تفكروا في ذاته . روى الإمام البيهقي في كتابه الأسماء والصفات (٢/ ٤٦) عن ابن عباس رضي الله عنه قوله : (تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله) . وإنما نهى السلف عن التفكر في ذات الله لأنه يوصل إلى الشكوك في الإيمان ، نسأل الله عز وجل أن يعصمنا برحمته من الزلل .

[3] المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، ج ٦ ، ص ٦٩١ .

بالصفات دون إنكارها ، ودون تكييفها ، ودون تشبيهها بصفات المخلوقين أو تمثيلها بهم ، أي نمرها كما جاءت دون تكييف أو تشبيه أو تمثيل أو تعطيل .

قال الحافظ ابن كثير : (وإنما يُسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك ، والأوزاعي ، والثوري ، والليث بن سعد ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه وغيرهم ، من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً ، **وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله ، فإن اللّـه لا يشبهه شيء من خلقه** ، و ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى) بل الأمر كما قال الأئمة – منهم نُعَيْم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري – : **"من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه** [1] **"**. فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى ، ونفى عن الله تعالى النقائص ، فقد سلك سبيل الهدى) [2] .

---

[1] قال الشنقيطي : (والحق الذي لا يشك فيه أدنى عاقل أن كل وصفٍ وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم فظاهره المتبادر منه السابق إلى فهم من في قلبه شيء من الإيمان هو التنزيه التام عن مشابهة شيء من صفات الحوادث . فبمجرد إضافة الصفة إليه ، جل وعلا ، يتبادر إلى الفهم أنه لا مناسبة بين تلك الصفة الموصوف بها الخالق ، وبين شيء من صفات المخلوقين ، وهل ينكر عاقل أن السابق إلى الفهم المتبادر لكل عاقل : هو منافاة الخالق للمخلوق في ذاته ، وجميع صفاته ، لا والله لا ينكر ذلك إلا مكابر .

والجاهل المفتري الذي يزعم أن ظاهر آيات الصفات لا يليق بالله لأنه كفر وتشبيه ، إنما جر إليه ذلك تنجيس قلبه ، بقذر التشبيه بين الخالق والمخلوق ، فأداه شؤم التشبيه إلى نفي صفات الله جل وعلا ، وعدم الإيمان بها . مع أنه جل وعلا هو الذي وصف بها نفسه ، فكان هذا الجاهل مشبها أولا ، ومعطلا ثانياً . فارتكب ما لا يليق بالله ابتداء وانتهاء ، ولو كان قلبه عارفاً بالله كما ينبغي ، معظماً لله كما ينبغي ، طاهراً من أقذار التشبيه ، لكان المتبادر عنده السابق إلى فهمه : أن وصف الله جلا وعلا ، بالغ من الكمال ، والجلال الثابتة لله في القرآن والسنة الصحيحة ، مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق على نحو قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (الشورى)) . (أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ، ج ٢ ، ص ٣٧٦-٣٧٧) .

[2] تفسير ابن كثر (٦/ ٣١٩-٣٢٠) .

الباب الثاني

بيان أنواع الشرك لتستبين بذلك سبيل المجرمين

إن الله سبحانه وتعالى بين الحق وأظهره ، وبين دين الأنبياء والمرسلين ، وأوضح سبيل المؤمنين ، ولم يكتفي بذلك بل بين دين أعداء الأنبياء والمرسلين ، وكشف عن باطلهم ، وأوضح بذلك سبيل المجرمين .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (الأنعام)

فاستبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين ، ولما ذكرنا في الفصول السابقة نوعي التوحيد وفصلنا فيه بحول الله تعالى ، أحببنا أن نبين أنواع الشرك المتعلق بهذين التوحيدين مجملاً . ولما كان الشرك هو ضد التوحيد ، والتوحيد شطرين شطر علمي وشطر عملي كان لكل شطر أنواع من الشرك يتعلق به .

قال الإمام ابن القيم : (فالتوحيد العلمي الخبري له ضدان : التعطيل ، والتشبيه ، والتمثيل . فمن نفى صفات الرب عز وجل وعطلها كذب تعطيله توحيده ، ومن شبهه بخلقه ومثله بهم كذب تشبيهه وتمثيله توحيده .

والتوحيد الإرادي العملي له ضدان : الإعراض عن محبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والإشراك به في ذلك ، واتخاذ أوليائه شفعاء من دونه)[1] .

فالتوحيد العلمي الاعتقادي له ضدان :

الأول : التعطيل .

معناه عدم وصف الله أساساً بصفات الربوبية ، أي سلب أو نفي صفات الربوبية بعضها أو كلها عن الله عز وجل . وقد يكون سبب هذا التعطيل الجهل أو العناد . وداء التعطيل من أخطر الأدواء ، مع أن المبتلين به قلة ، لأن النفوس مفطورة على الإقرار بالصانع وكماله . فالمعطلون للصانع أو لكماله قليلون في خصوم الأنبياء والمرسلين ، وهؤلاء يغلب عليهم التعطيل بسبب العناد لا بسبب الجهل ، فلقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن إمام المعطلة وهو فرعون أن سبب تعطيله لما قال : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الشعراء) هو العناد ، يدل على ذلك قول موسى عليه السلام له : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ (الإسراء) ، وقول الله تعالى عنه : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (النمل) .

واعلم أن تعطيل الصانع عن كماله مستلزم لتعطيل الصانع كما أشار لذلك شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية بقوله : (لكن التعطيل المحض للذات قليل ، **وأما الكثير فهو تعطيل صفات الكمال ، وهو مستلزم لتعطيل الذات**)[2] .

---

[1] اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ، ص ٤٣ .

[2] منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣/ ٢٩٢) .

لذا فإن من جهل ثبوت الكمال لله سبحانه وتعالى في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله فهو جاهل بالله لم يعرف الله سبحانه وتعالى بعد .

الثاني : التشبيه والتمثيل .

وهو اعتقاد صفة من صفات الربوبية في غير الله سبحانه وتعالى ، كالنصارى في المسيح ، واليهود في عزير ، والمجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى "النور" وحوادث الشر إلى "الظلمة" ، وكالقدرية المجوسية الذين يقولون أن الإنسان هو خالق أفعاله دون الله عز وجل .

أما التوحيد الإرادي العملي فقد يكون الشرك فيه إما بالإعراض عن هذا العمل أي الإعراض عن عبادة الله عز وجل أصلاً أي تعطيل ما يجب على العبد من حقيقة التوحيد أي تعطيل العبادة ، وقد يكون بإشراك غير الله معه في هذا الأمر . ولذلك قال الإمام ابن القيم : (والتوحيد الإرادي العملي له ضدان : الإعراض عن محبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والإشراك به في ذلك ، واتخاذ أوليائه شفعاء من دونه)[1] .

إذا يمكننا أن نقول أن التوحيد الإرادي العملي له ضدان :

الأول : تعطيل عبادة الله عز وجل .

كمن لا يحب الله أصلاً ، ولا يتوكل عليه ، ولا يتقرب له بأي نوع من أنواع العبادات .

الثاني : إشراك غير الله معه في العبادة .

وهذا هو الشرك الغالب على معظم البشرية قديماً وحديثاً .

والعبادة هي كمال المحبة والولاء والتعظيم ، وكمال الخضوع والانقياد ، وكمال الطاعة .

فمن كان يعبد الله بكمال المحبة ، يجب عليه أن يحب الله أكثر من كل شيء ولا يساوي غيره معه في هذه المحبة ، وكذلك يجب عليه أن يوالي ويعادي في الله عز وجل ، فيحب ما يحبه الله ، ويبغض ما يبغضه الله ، فيحب الموحدين ويواليهم ، ويكره المشركين ويتبرأ منهم .

ومن كان يعبد الله بكمال الخضوع والانقياد ، يجب عليه أن يخضع وينقاد لله في جميع صفات الربوبية لله وحده .

مثلاً : الله سبحانه وتعالى وحده يعلم الغيب ، فمن كان منقاداً لله في هذا يجب عليه أن لا يذهب إلى الكهان .

ومثال آخر : الله سبحانه وتعالى هو الضار النافع ، فمن كان منقاداً لله في هذا يجب عليه أن يدعوا الله وحده ، ويتوكل على الله وحده .

ومثال آخر : الله سبحانه وتعالى شرع لعباده أعمالاً يتقربون بها إليه ، وتسمى شعائر العبادة ، مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج ، فمن كان منقاداً لله يجب عليه أن لا يصرف هذه الشعائر لغير الله عز وجل .

---

[1] اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ، ص ٤٣ .

ومن كان يعبد الله عز وجل بكمال الطاعة ، يجب عليه أن يكون مرجعه في التحليل والتحريم أوامر الله ، ويجب عليه أن لا يتحاكم إلا لشرع الله عز وجل ، ويجب عليه أن لا يحكم إلا بشرع الله عز وجل .

قال الحافظ ابن تيمية : (وأصل الشرك إما **التعطيل** مثل تعطيل فرعون موسى ، والذي حاج إبراهيم في ربه خصم إبراهيم ، والدجال مسيح الضلال خصم مسيح الهدى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم ، وإما **الإشراك** وهو كثير في الأمم أكثر من التعطيل وأهله خصوم جمهور الأنبياء ، وفي خصوم إبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم معطلة ومشركة ، لكن التعطيل المحض للذات قليل ، **وأما الكثير فهو تعطيل صفات الكمال ، وهو مستلزم لتعطيل الذات**) [1] .

فصل : شرك التعطيل شر من شرك العبادة

ولتعلم أن شرك التعطيل شر من شرك العبادة ، وهذا الأمر مستقر في سائر الفطر والعقول .

قال الإمام ابن القيم : (فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله ، كما أن من أقر للملك بالملك ولم يجحد ملكه ولا الصفات التي استحق بها المُلك لكن جعل معه شريكاً في بعض الأمور تقرباً إليه خير ممن جحد صفات الملك وما يكون به الملك ملكاً ، هذا أمر مستقر في سائر الفطر والعقول . فأين القدح في صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب إليه بعبادة تلك الواسطة إعظاماً له وإجلالاً ؟!) [2] .

وقال في موضع آخر : (فالمعطل شر من المشرك ، فإنه لا يستوي جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والطعن في أوصافه هو والتشريك بينه وبين غيره في الملك ، فالمعطلون أعداء الرسل بالذات ، بل **كل شرك في العالم فأصله التعطيل** ، فإنه لولا تعطيل كماله أو بعضه ، وظن السوء به لما أشرك به ، كما قال إمام الحنفاء وأهل التوحيد لقومه : ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (الصافات) أي فما ظنكم به أن يجازيكم وقد عبدتم معه غيره ، وما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء أظننتم أنه محتاج إلى الشركاء والأعوان ، أم ظننتم أنه يخفى عليه شيء من أحوال عباده حتى يحتاج إلى شركاء تعرفه بها كالملوك ، أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم ، أم هو قاس فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده ، أم ذليل فيحتاج إلى ولي يتكثر به من القلة ويتعزز به من الذلة ، أم يحتاج إلى الولد فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً ، والمقصود أن التعطيل مبدأ الشرك وأساسه فلا تجد معطلا إلا وشركه على حسب تعطيله فمستقل ومستكثر) [3] .

---

[1] منهاج السنة النبوية لابن تيمية (٣/ ٢٩٢) .

[2] الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ص ١٥٥ .

[3] مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٤٨٦) .

قال الإمام المقريزي (٧٦٦-٨٤٥هـ) رحمه الله : (الشرك شركان : شرك متعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله . وشرك في عبادته ومعاملته ، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاته ... وأما الشرك الأول : فهو نوعان :

أحدهما : شرك التعطيل ، وهو أقبح أنواع الشرك ، كشرك فرعون في قوله : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الشعراء) ... وهو ثلاثة أقسام :

أحدها : تعطيل المصنوع عن صانعه .

الثاني : تعطيل الصانع عن كماله الثابت له .

الثالث : تعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد .

ومن هذا شرك أهل الوحدة ، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته ، وأن الحوادث بأسرها مستندة إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها ، يسمونها العقول والنفوس ، ومنه شرك معطلة الأسماء والصفات كالجهمية والقرامطة وغلاة المعتزلة .

النوع الثاني : شرك التمثيل : وهو شرك من جعل معه تعالى إلها آخر ، كالنصارى في المسيح ، واليهود في عزير ، والمجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى "النور" وحوادث الشر إلى "الظلمة" . وشرك القدرية المجوسية مختصر منه ...) [1] .

وقد شرح ابن دقيق العيد حديث أبي بكرة رضي الله عنه وبين من خلاله أن الشرك لفظ عام يشمل كل كفر وأقبحه التعطيل ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « **أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ** » ثَلاَثًا . قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِّ . قَالَ : « **الإِشْرَاكُ بِاللهِّ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ** » ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ : « أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ » ، قَالَ : فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ) [2] ، فقال في معرض شرحه لهذا الحديث :

(قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ (الإِشْرَاكُ بِاللهِّ) يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ : مُطْلَقُ الْكُفْرِ ، فَيَكُونُ تَخْصِيصُهُ بِالذِّكْرِ لِغَلَبَتِهِ فِي الْوُجُودِ ، لاَ سِيَّمَا فِي بِلاَدِ الْعَرَبِ ، فَذُكِرَ تَنْبِيهًا عَلَى غَيْرِهِ .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ : خُصُوصُهُ ، إلاَّ أَنَّهُ يُرَدُّ عَلَى هَذَا الاحْتِمَالِ : أَنَّهُ قَدْ يَظْهَرُ أَنَّ بَعْضَ الْكُفْرِ أَعْظَمُ قُبْحًا مِنْ الإِشْرَاكِ ، وَهُوَ كُفْرُ التَّعْطِيلِ ، فَبِهَذَا يَتَرَجَّحُ الاحْتِمَالُ الأَوَّلُ) [3] .

نعوذ بالله من الكفر بكل أشكاله وأنواعه و نعوذ بالله من كل ما يقربنا إليه ويبعدنا عن الإيمان .

---

[1] تجريد التوحيد المفيد للمقريزي ، ص ٦٠-٦١ .

[2] صحيح البخاري ، كتاب الشهادات / باب ما قيل في شهادة الزور ، ط. المكنز (ص٧٢٢ ، حديث رقم: ٢٦٥٤) ، الطبعة السلطانية (٣/ ١٧٢) .

[3] إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ، باب القضاء ، ص ٩١٩ .

ملخص البحث

وهنا نريد الإشارة باختصار إلى أهم النقاط التي تناولها البحث ، فنقول بحول الله تعالى :

– إن معرفة الله سبحانه وتعالى هي أصل التوحيد ، وكل مكلف يجب عليه أن يعرف الله سبحانه وتعالى معرفة تخرجه عن حد الجهل به سبحانه حتى لا يكون ممن يعبد غير الله وهو لا يدري .

– إن رسل الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم كانوا يدعون أقوامهم إلى عبادة الله عز وجل بوصفه أنه رب العالمين قبل أن يبينوا تفاصيل صفاته وأسمائه الكثيرة ، وإن الله عز وجل لما أشهد البشرية على التوحيد أشهدهم على الإقرار بربوبيته المقتضية لعبادته وحده ، مما يعني أنه من عرف أن الله سبحانه وتعالى هو رب العالمين فقد عرف الله سبحانه وتعالى المعرفة التي يخرج بها عن حد الجهل به سبحانه .

– إن كلمة الرب تأتي في لغة العرب بمعنى المالك للشيء ، والمصلح والمربي له ، والسيد المطاع ، وباعتبار هذه المعاني الثلاث نعرف أنها تتضمن صفة الخلق والعلم والقدرة والإرادة والحكمة ، والإنعام والرزق ، والتصرف المطلق في الكون ، والحق في التشريع والتحليل والتحريم ، والحق في السيادة والطاعة المطلقة . ولازم الصفات السابقة اتصاف الله عز وجل بالكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله وتنزه عن جميع النقائص والآفات ومشابهة الخلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله . ومقتضى هذه المعرفة الاستسلام لله وحده بهذه الصفات ، والانقياد والخضوع له بكمال المحبة والولاء والطاعة .

– إن معرفة الله عز وجل فطرية مغروسة في أعماق البشر ، ولذلك كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام تذكر أقوامها بهذه المعرفة تذكيراً ، وقد يحتاج من تشوهت فطرته إلى التعليم من جديد .

– إن الله سبحانه وتعالى أشهد البشر على معرفة ربوبيته وهم في عالم الذر ، وفطرهم على ذلك ، ومن ثم نصب الآيات الكونية الدالة على معرفته ، ولم يكتفي بذلك بل أرسل الرسل وأنزل معهم الكتب ، فتحصَّل عندهم معرفة ربهم جل جلاله بالشرع كما بالعقل ، ولكن من رحمته سبحانه أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة ببلاغ الرسل .

– إن المجتهد المخطئ في معرفة الله لا يعد موحداً ولا مؤمناً بالله بل ولا عارفاً به ، بل إن من عرف الله ولم يوحده لا يعد موحداً لأنه لم يعمل بمقتضى هذه المعرفة من الاستسلام لله وحده .

– إنه ليس بالضرورة على الموحد أن يكون حافظاً لجميع صفات الربوبية ومعبراً عنها بالتفصيل لكي يصح توحيده ، بل إن معرفة مقتضيات هذه الصفات وأحكامها يكفي لصحة توحيده ، ليس المهم أن يحفظها حفظاً ويسردها سرداً .

– إن توحيد العلم والاعتقاد مستلزم لتوحيد العبادة ، وتوحيد العلم هو الأصل ومن لم يعطه حقه سيغلط في توحيد العمل ولا بد .

– إن صفات الله عز وجل التي يعذر الموحد بجهلها ولا تكون شرطاً لصحة توحيده هي الصفات التي لا يعني جهلها جهلاً بربوبية الله للعالمين أو قدحاً أو تنقصاً لرب العالمين . كما أنها لا تعلم إلا عن طريق الخبر والمخالف فيها بين مجتهد مخطئ أو مبتدع ضال أو كافر جاحد .

ملخص الرسالة في جدول بياني

<table>
<tr><th colspan="6">التوحيد الذي دعت إليه رسل الله وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام</th></tr>
<tr><td colspan="2">التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي
﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ (الإخلاص)</td><td colspan="4">التوحيد العملي القصدي الطلبي
﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ (البقرة)
﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ (الكافرون)</td></tr>
<tr><td colspan="2">الذات المقدسة – الأفعال والصفات الكاملة التي لا نقص فيها</td><td colspan="4" rowspan="2">الاستسلام والانقياد لـ (الرب المالك الخالق والمدبر السيد) والتعلق به بكمال المحبة والولاء ، وكمال الخضوع ، وكمال الذل ، وكمال الطاعة</td></tr>
<tr><td>صفات الربوبية</td><td>الصفات الخبرية</td></tr>
<tr><td>الصفات الكاملة التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه والتي لا يتصور رب كل شيء (مالك ، مصلح ، مربي ، سيد مطاع) بدونها</td><td>تفاصيل صفات الربوبية :
(مثل مظاهر تجلي قدرة الله وعلمه)
وما عدا صفات الربوبية :
(مثل الاستواء واليد والوجه)</td><td>المحبة والولاء</td><td>الدعاء والتوكل</td><td>الحاكمية والتشريع</td><td>النسك والشعائر</td></tr>
<tr><td>﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (النحل: ٦٠)
نؤمن بها ونقر بها دون تشبيه أو تمثيل أو تعطيل ، وكذا نؤمن بلازمها من تنزيه الله عز وجل وتقديسه مطلقاً</td><td>﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى: ١١)
نؤمن بها ونقرها كما أخبر بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بدون تشبيه أو تمثيل أو تعطيل</td><td colspan="4">﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ (هود: ٥٠)
نصرف العبادات كلها لله وحده
مع : (١) البراءة من الشرك وأهله
(٢) وموالاة التوحيد وأهله</td></tr>
<tr><td>العلم بها أساس التوحيد وأول فرض على من تشوهت فطرته</td><td>العلم بها فرض كفاية</td><td colspan="4">العمل بها أصل التوحيد وأول فرض على المكلف</td></tr>
<tr><td>لا يعذر فيها بالجهل ولا بالتأويل لأن من جهلها هو جاهل بالله سبحانه وتعالى ، والمخالف فيها كافر غير عارف بالله ولو كان مجتهداً أو متأولاً .</td><td>يعذر من لم يعلم بها أو من علمها فأولها ، ولكن لا يعذر من علمها فشبهها أو مثلها بصفات المخلوقين . فالمخالف فيها بين مجتهد مخطئ أو مبتدع ضال أو كافر جاحد</td><td colspan="4">لا عذر فيها بالجهل أو التأويل إلا في بعض متعلقاتها أي ما يحتاج منها لقيام حجة خبرية ودليل من كتاب أو سنة مثل معرفة أنواع الشعائر والنسك ومعرفة تفاصيل شرع الله عز وجل .</td></tr>
<tr><td>الدعوة إليها بالتذكير والإلزام بها ولا يحتاج لسرد أدلتها والتفصيل إلا لمن علم عنه ناقض أو بدعة فيها حيث الاعتراف بها مركوز في النفوس والفطر .</td><td>الدعوة إليها فقط عبر كتاب الله عز وجل وما ثبت من سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودون التعمق حولها</td><td colspan="4">الدعوة إليها هي الغاية واللازم من الإقرار بالربوبية وإلا لن ينفع الناس المعرفة والإثبات للربوبية إن لم يقروا بالألوهية . ولأن جواذب النفس ووساوس الشياطين يغلب فيها كثر نقضها فوجب التركيز عليها</td></tr>
</table>

خاتمة

قال رب العزة تبارك وتعالى :

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (الأنعام)

فهذه دعوة نوجهها إلى كلِّ ذي عقل سليم ، وطبع مستقيم من فرق الأمة عموماً وأصحاب الدعوة خصوصاً ، نمد إليهم أيدينا بالله مستعينين و لهم قائلين : ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ (آل عمران: ٦٤) .

تعالوا نجتمع على **كلمة التوحيد** ... الكلمة التي فُطِرَ الناس عليها ودعت الرسل إليها ، يقف أمامها الجميع على مستوى واحد ، لا يعلوا بعضنا على بعض ، ونستوي نحن وأنتم فيها :

- **كلمة سواء** : ننزه الله سبحانه و تعالى من خلالها عن النقائص والآفات ، ونثبت له الكمال المطلق في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله من غير تشبيه و لا تمثيل ولا تعطيل ، وأن لا نجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . فإنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى: ١١) لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، وأن لا نصرف الحقوق الخاصة بالخالق التي هي من خصائص ربوبيته إلى غيره .

- **كلمة سواء** : نفرد الله من خلالها بجميع أنواع العبادات فلا نعبد وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً، كما نفرده بمطلق الطاعة فلا نطيع غيره معه أو من دونه ، وأن لا نصرف الحقوق الخاصة بالمعبود التي هي من خصائص ألوهيته إلى غيره ونكون على ذلك من الشاهدين كما ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ (آل عمران)

- **كلمة سواء** : نوالي من خلالها أولياء الرحمن ، ونعادي أولياء الشيطان ، فتكون هي الوشيجة الوحيدة التي يقوم عليها مبدأ التواد والنصرة والتأييد ، وقد حذر الله سبحانه وبيَّن العواقب التي تترتب على ترك جانب الولاء والبراء الذي تتضمنه هذه الكلمة العظيمة فقال عز من قائل : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (الأنفال) .

- **كلمة سواء** : ينال لأجلها الموحدون ولاية الله ، والمشركون ولاية الطاغوت ، قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ (البقرة) ، وتكون هي الفارقة بين الذين يريدون الآخرة ويسعون لها سعيها وبين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً .

- **كلمة سواء** : نخاطب بها المشركين ومن جادل عنهم وندعوهم إلى الإيمان بما آمنَّا ، والإذعان إلى ما أذعنَّا ، فإن تولوا عن الانقياد والالتزام – بمقتضى هذه الكلمة – فلنشهد نحن وأنتم : أننا مسلمون دونهم ، وأننا براء منهم ومن معتقداتهم ومن معبوداتهم حتى يؤمنوا بالله وحده وينقادوا لهذه الكلمة السواء ... تأسياً بإمام الحنفاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما

قال ربنا تبارك وتعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (الممتحنة: ٤)

فهذا ديننا وهذه عقيدتنا ملة إبراهيم عليه السلام ، ونحن برآء إلى الله تعالى من كل من خالف الذي ذكرناه وبيناه ، ونسأل الله أن يثبتنا على الإيمان ويختم لنا به ، ويهدي إليه من يشمر ويسعى فيأخذ بأسباب الهداية والطرق الموصلة إلى معرفته من الدعاء والصدق والإخلاص وسلوك المسلك الصحيح في قبول التوحيد والتفكر فيه وتدبره ، ونبذ التقليد والاتباع الأعمى ، نعوذ بالله من مقارفة الشرك فهو في وقوعه كثير والخوف منه جلل كيف لا وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ (النساء: ٤٨) ، أفبعد كل هذا وبعد علمنا أن كل منا ميت ومقبور ، وعما اقترفه في دنياه مسؤول ، ألا يجدر بنا التزود لذلك اليوم ؟!

قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ (البقرة) ، فإما إلى رَوْحٍ و ريحان وجنة ونعيم ، وإما إلى هموم وأحزان ونار وجحيم ، أعاذنا الله و إياكم منها . ورحم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب حين قال:

يَا مَنْ تَعِزُّ عَلَيْهِمْ أَرْوَاحُهُمْ ... وَيَرَوْنَ غُبْناً بَيْعَهَا بِهَوَانْ
وَيَرَوْنَ أَنَّ أَمَامَهُمْ يَوْمَ اللِّقَا ... لله مَسْأَلَتَانِ شَامِلَتَانْ
مَاذَا عَبَدْتُم ثُمَّ مَاذَا قَدْ أَجَبْتُمْ ... مَنْ أَتَى بِالْحَقِّ وَالْبُرْهَانْ
هَيِّئُوا جَوَاباً لِلسُّؤَالِ وَهَيِّئُوا ... أَيْضًا صَوَابًا لِلْجَوَابِ يُدَانْ
وَتَيَقَّنُوا أَنْ لَيْسَ يُنْجِيكُمْ سِوَى ... تَجْرِيدُكُمْ لِحَقَائِقِ الإِيمَانْ
تَجْرِيدُكُمْ تَوْحِيدَهُ سُبْحَانَهُ ... عَنْ شِرْكَةِ الشَّيْطَانِ وَالأَوْثَانْ
وَكَذَاكَ تَجْرِيدُ اتِّبَاعِ رَسُولِهِ ... عَنْ هَذِهِ الآرَاءِ وَالْهَذَيَانْ
فَالوَحْيُ كَافٍ لِلَّذِي يُعْنَى بِهِ ... شَافٍ لِدَاءِ جَهَالَةِ الإِنْسَانْ[1]

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ (آل عمران)

وأما الشبهات التي يحاول بها أعداء الدين تغيير حقائق التوحيد ، فإن الواجب قبل كل شيء على من أراد النجاة أن يعرف الحق بدليله ، فإذا عرفت الحق بدليله عرفت أن كل ما سواه باطل كما قال تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ (يونس: ٣٢) ، وهذه قاعدة جليلة عمل بها سلفنا الصالح عليهم رحمة الله فكانت لهم كالحصن المنيع في مواجهة شبهات المرتابين ، وضلالات المنحرفين وافتراءات المنافقين ، وكنا قد أشرنا أن هذه الرسالة ستعقبها بحول الله تعالى وعونه رسالة كبيرة تشمل الرد على جل

---

[1] الرسائل الشخصية ، ص ١٦٢ ، الرسالة السابعة والثلاثون .

الشبهات المثارة والتي يحاول بها أعداء الإسلام إدخال من ينسبون لله النقص إلى دائرة الإسلام ، نسأل الله سبحانه وتعالى الإعانة والتيسير .

ونختم هذه الرسالة بحمد الله وشكره أن أنعم علينا بمعرفته ، وتعريف الخلق به ، فإن الجاهل كل الجهل من لم يعرفه ، وإن المسكين كل المسكين من عرفه ولم يوحده ، وإن الشرف كل الشرف في عبوديته وطاعته ، وإن سعادة الدنيا والآخرة في مرضاته ، وإنه لا ملجأ ولا منجى لنا منه إلا إليه ، ولا حول ولا قوة لنا إلا به .

وما أحسن ما قال القائل :

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَتِيهًا ... وَكِدْتُ بِأَخْمُصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا

دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عِبَادِي ... وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا

فاللهم لك الحمد على نعمة العبودية ، وعلى نعمة التوحيد ، ونسألك اللهم أن تهدينا إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم من الأنبياء والمرسلين والشهداء والصديقين والصالحين ، ونسألك اللهم أن تحيينا على دينك وتميتنا عليها ، كما نسألك ربنا رضاك والجنة ، ونعوذ بك من سخطك والنار .

اللهم إنا نسألك حبك وحب من أحبك وحب عمل يقربنا لحبك ، اللهم ما أعطيتنا مما نحب فاجعله طاعة لنا فيما تحب ، اللهم ما زويت عنا مما نحب فاجعله فراغا لنا لما تحب .

وصلى الله على نبينا وإمامنا وحبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى .

قائمة المصادر والمراجع

اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) ، ط. دار ابن حزم ، ٢٠٠٣م .

إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ، تقي الدين ابن دقيق العيد (٦٢٥-٧٠٢هـ) ، أملاه على الوزير عماد الدين الحلبي المتوفى ٦٩٩هـ ، تحقيق: حسن أحمد ، ط. دار ابن حزم ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م .

إحياء علوم الدين ، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، ط. مكتبة "كرياطة فوترا" سماراغ – إندونيسيا .

أربعون مسألة في أصول الدين ، أبي عبد لله محمد بن خليل السكوني الإشبيلي ، تحقيق : يوسف احنانا ، ط. دار الغرب الإسلامي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٣م .

إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني ، ط. المطبعة الكبرى الأميرة ، بولاق – مصر ، ١٣٢٢هـ .

الاستغاثة في الرد على البكري ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، تحقيق : عبد الله بن دجين السهلي ، ط. دار الوطن ، الرياض – السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .

الأسماء والصفات ، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق : عبد الله بن محمد الحاشدي ، ط. مكتبة السوادي ، جدة – السعودية ، الطبعة الأولى .

أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (١٣٢٥-١٣٩٣هـ) ، تحقيق : بكر عبد الله أبو زيد ، ط. دار عالم الفوائد ، مكة المكرمة .

إعلام الموقعين عن رب العالمين ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) ، تحقيق : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، ط. دار ابن الجوزي ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣هـ .

إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، ط. مكتبة دار التراث ، القاهرة – مصر .

بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي (ت: ٥٨٧هـ) ، تحقيق : علي محمد معوض & عادل أحمد عبد الموجود ، ط. دار الكتب العلمية ، منشورات محمد علي بيضون ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م .

بدائع الفوائد ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) ، تحقيق : علي بن محمد العمران ، ط. دار عالم الفوائد ، مكة المكرمة .

بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية ، أبي سعيد محمد بن محمد ابن مصطفى الخادمي الحنفي ، ط. مطبعة (شركة صحافية) التابعة للدولة العثمانية .

التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، أبو المظفر طاهر بن محمد الإسفراييني المتوفى سنة ٤٧١ هـ ، تحقيق : كمال يوسف الحوت ، ط. عالم الكتب ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

تجريد التوحيد المفيد ، المقريزي ، تحقيق: علي بن محمد العمران ، ط. دار عالم الفوائد – مكة المكرمة.

تفسير ابن الجوزي المسمى : زاد المسير في علم التفسير ، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (٥٠٨-٥٩٧هـ)، ط. المكتب الإسلامي لصاحبه زهير الشاويش ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤هـ .

تفسير ابن كثير المسمى : تفسير القرآن العظيم ، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي (٧٠٠-٧٧٤هـ) ، تحقيق : مصطفى السيد محمد & محمد السيد رشاد & محمد فضل العجماوي & علي أحمد عبد الباقي & حسن عباس قطب ، ط. مؤسسة قرطبة & مكتبة أولاد الشيخ للتراث ، جيزة – مصر .

تفسير أبي السعود المسمى : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، ط. مكتبة الرياض الحديثة – الرياض .

تفسير الألوسي المسمى : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، شهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألوسي البغدادي ، ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت .

تفسير البيضاوي المسمى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ، ط. مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان .

تفسير التحرير والتنوير ، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، ط. الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤م .

تفسير الرازي المسمى : مفاتيح الغيب ، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي (٥٤٤-٦٠٤هـ) ، ط. دار الفكر ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م .

تفسير السعدي المسمى : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي ، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، ط. مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠م .

تفسير الشوكاني المسمى : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ) ، ط. دار الفكر ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

تفسير الطبري المسمى : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ) ، حققه وخرج أحاديثه : محمود محمد شاكر ، راجع أحاديثه : أحمد محمد شاكر ، ط. مكتبة ابن تيمية – القاهرة .

تفسير القرطبي المسمى : الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان ، أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ، تحقيق : الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ط. مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م .

تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، ط. المكتب الإسلامي ، الطبعة الثالثة .

الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) ، ط. مكتبة الإيمان ، المنصورة – مصر .

درء تعارض العقل والنقل ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، تحقيق : الدكتور محمد رشاد سالم ، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود ، الطبعة الثانية ، ١٤١١هـ – ١٩٩١م ، الرياض .

الدرر السنية في الأجوبة النجدية ، جمع وترتيب : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، الطبعة السادسة ، ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م .

الرد على المنطقيين ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، تحقيق : عبد الله بن دجين السهلي ، ط. دار المعرفة ، بيروت – لبنان .

الرد على المنطقيين أو المسمى أيضا نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، تحقيق : عبد الصمد شرف الدين الكتبي ، ط. مؤسسة الريان .

الرسائل الشخصية ، محمد بن عبد الوهاب النجدي .

سنن أبي داوود ، الإمام أبو داود سليمان بن أشعث السجستاني ، طبعة المكنز .

سنن النسائي ، الإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ، ط. المكنز .

سير أعلام النبلاء ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، ت ٧٤٨هـ – ١٣٧٤ م ، تحقيق : بشار عواد معروف ، ط. مؤسسة الرسالة .

شرح العقيدة الطحاوية ، القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي & شعيب الأرنؤوط ، ط. مؤسسة الرسالة ، الطبعة التاسعة ، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦م .

شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) ، ط. دار الكتب العلمية ، الطبعة الثالثة ، بيروت – لبنان .

صحيح البخاري ، الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، طبعة المكنز .

صحيح البخاري ، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، الطبعة السلطانية.

صحيح مسلم ، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسابوري ، ط. المطبعة العامرة.

صحيح مسلم ، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسابوري ، ط. المكنز .

صحيح مسلم بشرح النووي ، محيي الدين أبي زكريا يحي بن شرف النووي الدمشقي (٦٣١-٦٧٦هـ) ، الطبعة المصرية بالأزهر ، الطبعة الأولى ، ١٣٤٧هـ-١٩٢٩م.

الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) ، تحقيق: الدكتور علي بن محمد الدخيل الله ، ط. دار العاصمة ، الرياض – السعودية ، الطبعة الثانية ، ١٤١٢هـ .

صيد الخاطر ، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (٥٠٨-٥٩٧هـ) ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي ، ط. المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت / لبنان ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) ، تحقيق : عبد القادر شيبة الحمد ، ط. على نفقة سلطان بن عبد العزيز آل سعود .

في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ط. دار الشروق ، بيروت – لبنان ، الطبعة الشرعية السابعة عشرة ، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .

كتاب مشكل الحديث أو تأويل الأخبار المتشابهة ، الشيخ الإمام الحافظ أبي بكر محمد بن الحسن ابن فورك الإصبهاني الأشعري ، تحقيق: دانيال جيماريه، ط. المعهد الفرنسي للدراسات العربية – دمشق .

مجموع الفتاوى ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، الطبعة السعودية .

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) ، تحقيق: رضوان جامع رضوان ، ط. مؤسسة المختار ، القاهرة – مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) ، منشورات محمد علي بيضون ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م .

المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، الإمام الحافظ أبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي ، تحقيق: محيي الدين ديب مستو & يوسف علي بديوي ، ط. دار الكلم الطيب – دمشق & بيروت .

الملل والنحل ، أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، (ضمن حاشية كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم) ، ط. دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .

الموافقات ، أبي إسحق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (ت: ٧٩٠هـ) ، تحقيق : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، ط. دار ابن عفان، الخبر – السعودية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م .

ناصر الدين على القوم الكافرين ، شهاب الدين أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي المتوفى بعد سنة ١٠٤٨ هـ ، وضع حواشيه : أحمد حسن بسج ، ط. دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م .

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥هـ – ١٤٨٠م ، ط. دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة .

نهاية الإقدام في علم الكلام ، أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق : ألفرد جيوم ، ط. لندن ، ١٩٣٤م .

هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) ، تحقيق: سيف الدين الكاتب ، ط. دار مكتبة الحياة ، بيروت – لبنان .

فهرس المحتويات